عادل أبو المعاطي

خطب إمام البلغاء

الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه

تقديم
عبد الحميد كشك

الروضة
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

الروضة
لكتب سامي صالح الطرابيشي



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للشيخ عبد الحميد كشك

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله شهادة أخلو بها وحدى وأفنى بها عمرى ويغفر بها ذنبى وأدخل بها قبرى وألقى بها ربى ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله أوتى جوامع الكلم واختُصِر له الكلام اختصاراً .

وقد صدق أمير الشعراء عندما قال فى أمير الأنبياء :

فَمَا عرفَ البلاغَةَ ذُو بيان
إذَا لَمْ يتخذْكَ لَهُ كِتَاباً

صلوات ربى عليك يا رسول الله ... وبعد

فانا إذ أقدم لربيب بيت النبوة البطل الفدائى على بن أبى طالب الذى تربَّى فى بيت رسول الله وارتووا من المنهل العذب المورود أستاذ البيان الفصيح البليغ الذى طالما اهتزت له أعواد المنابر ووصل رنينه إلى أعماق القلوب ، الرجل الذى إذا تكلم خضعت له رقاب البلغاء ، وإذا خطب فللمنابر اهتزاز ، وللقلوب بكاء .

إننى عندما أتحدث عن بلاغته وبيانه وفصاحته أشعر كأنى أقف فى وهدتين سحيقتين ، وأطل بناظرىّ الى قمة شمّاء تنخلع الرقاب عند ذراها .

كان إذا خطب يناطح السحاب ويتطاول إلى الجوزاء ويزاحم الشمس فى الجلاء ، كان والله غزير العَبْرة ، طويل الفكرة ، بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فَصْلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجّر العلم من جوانبه وتنطلق الحكمة من نواحيه .

ومهما قال اللسان وأملى الجنان وفاض البيان وسال البنان فلن أصل إلى شاطىء البحر الذى عبره فارس المنابر على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولسوف يرى القارىء من بلاغته فى خطبه ما يُصدِّق ما قلناه فرحم الله أبا الحسن ، وطيَّب الله ثراه ، وجعل الجنة مرقده وفى النعيم أرقده ، وصلوات ربى وسلامه على مَنْ علَّمه سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام .

الشيخ

عبد الحميد كشك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الخطابة ركناً هاماً من أركان الدعوة الإسلامية فى مسيرتها منذ نزول الوحى على رسول الله ﷺ وعبر العصور والأزمان كلها على اختلاف المذاهب والطوائف والمنازع والثقافات ، فالخطابة كانت ومازالت أداة توصيل هامة لتعاليم ومبادىء أحكام الدين إلى جمهور المسلمين على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم العقلية والذهنية والفكرية .

ولذلك يجب أن يهتم الدعاة والمفكرون والفقهاء بتقويم الخطباء ، وإعانتهم الحقة ، لأن الخطابة هى الأداة الرئيسية لإعطاء الصورة السامية العالية التى يتسم بها الإسلام .

إننا بحاجة ماسة إلى الخطبة الجيدة الرصينة التى تأخذ بألبابنا وأفئدتنا ، وتملك علينا عقولنا وتحي فينا ما مات من الضمير والجد والعزم فى أخذ أحكام الله ، وتعرفنا بفقه إسلامنا وأحكام ديننا الحنيف ، ولسنا نريد خطبة ميتة تعيش بنا وسط ترهات أو خرافات أو أقاصيص القصاص التى فيها الشيء الكثير من الغث والزيف .

إن الخطيب يجب أن يضع نصب عينيه أنه صاحب رسالة ، وأن عليه أمانة يجب أن يؤديها لدينه ، وأنه على ثغر من ثغور الإسلام ، وأنه يقف على منبر رسول الله ﷺ ، ذلك المنبر الذى وقف عليه أصحابه رضى الله عنهم من بعده فى كل الأمصار وفى كل البقاع يؤدون إلى الأمة ما كلفهم به محمد ﷺ إمام الخطباء : « بلِّغوا عنى ولو آية » .

إننا بحاجة إلى خطباء يدركون الواقع الإسلامى الذى نعيشه ، ويكونون على وعى كامل بمقتضيات ومتطلبات المرحلة التى تمر بها الدعوة

الإسلامية بعد ١٤ عاماً من بدء مسيرة الهدى التى يجب أن تتواصل لتنقذ تلك الأجيال التى تضيع سُدًى وتلك الطاقات التى تُهْدَر ، ولتروى تلك القلوب العطشى لهدى الله عز وجل .

والأهم من هذا كله أن يكون الخطيب مثالاً حياً ونموذجاً ماثلاً أمام أعين الناس كلهم لكل ما يقوله على المنبر ، حتى لا تكون بينه وبين السامعين له حواجز من عدم الثقة والتهاون بشأنه وبكلامه لأنه يقول ما لا يفعل ، وهذا أمر هام جداً فالقدوة يجب أن تكون حقيقية حية تنبض فى كل دقيقة من حياة الخطيب بالخير للناس .

يجب أن يكون الخطيب مرتبطاً أشد الارتباط بمن حوله ممن يسمعونه ، يتعرف مشاكلهم وحاجياتهم ويقف بجانب الضعيف منهم والمظلوم والمحتاج ليكون على هَدْى خير الخلق كلهم ، وليكون قرآناً يمشى على الأرض ، ونموذجاً حياً للإسلام .

إن على الخطيب أن يكون على قدر كبير من الاطلاع والفقه ومعرفة الأحكام التى كثيراً ما تعرض للناس والتى يعرفها بخبرته وممارسته واحتكاكه بالناس ، فلا يكون منفصلاً عن اهتمامات الجمهور الذى يسمعه ، بل يجب أن يراعى فيهم اختلاف ثقافاتهم واهتماماتهم وأعمالهم الدنيوية التى يعملونها ، فليس ما يقال لمجتمع من الشباب يقال لمجتمع الشيوخ ، ولا ما يقال للصُنَّاع والزُّراع وأصحاب الحِرَفْ يقال للطلاب ، فلكل مجتمع اهتماماته وما يناسبه .

إن الخطبة النمطية الروتينية يجب أن تختفى من حياة المسلمين المقبلين على القرن الخامس عشر الهجرى أو عام ٢٠٠٠ بكل تحديات العصر وتقدمه وتكنولوجيته ، لأن العالم الآن أصبح ككتلة واحدة بفضل التقدم الهائل فى وسائل الاتصال ، وأصبحنا أمام تحدٍ خطير لتحصين شبابنا ضد فيروسات غزو فكرى سيغيِّر كثيراً من أخلاقياتنا وقيمنا وتقاليدنا إن لم ننتبه جيداً ونكون على مستوى هذا التحدى .

إن شبابنا الآن الذى يرى هذا التقدم الهائل ، ومع أن مَنْ تقدموا غير مسلمين وبقينا نحن متخلفين رغم ماضينا الزاهر ، وللأسف أنه ماضٍ ولا حديث لنا عن الحاضر ، لأننا عالة على غيرنا فى كل شيء .

شبابنا الآن لا يقنعه اليوم خطيب يقف على المنبر ليلقى خطبة فى مواضيع متكررة فى معانٍ سبق الحديث عنها مئات المرات ، بل يقنعه أن نحدثه عن حتمية أن يكون شباباً متمسكاً بتعاليم ربه ، واعياً لمقتضيات عصره ، فاهماً لطبيعة دوره فى هذه الحياة نحو كل مَنْ حوله .

ولذلك يجب أن يكون الخطباء على مستوى هذا التحدى وعلى مؤسسات تخريج الدعاة على اختلاف أنواعها أن تضع كل هذا فى حسبانها وهى تُخرِّج داعية جديداً يدعو للإسلام .

تلك كلمات أردت بها أن أضع بعض العلامات الموجزة والمختصرة للخطباء ، وأردت أن أعطيهم نموذجاً للخطابة فى صدر الإسلام لأمير المؤمنين على بن أبى طالب من أبلغ خطباء صحابة رسول الله ﷺ ، فجمعت هذا الكتاب من بطون كتب الأدب والتاريخ والحديث ، والتى شملت نواحى كثيرة ، من دعوة لتقوى الله وخشيته ، ومن غرس للإيمان الصحيح الحق فى القلوب ، وتحريض على الجهاد وإعلاء كلمة الحق وحملة على الناكثين بعهدهم أو الخارجين .

عادل أبو المعاطى

ص . ب ١٦٩ المعـادى

ت : ٣١٨٧٣٦٨

(١)

البعث بعد الموت والحساب

عن رجل من بنى شيبان أن على بن أبى طالب خطب فقال :

« الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليزيح به عِلَّتكم ، وليوقظ به غفلتكم .

واعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها دار بالبلاء محفوفة ، وبالفناء معروفة ، وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال وهى بين أهلها دول وسجال ، ولا تدوم أهوالها ، ولن يسلم من شرها نُزَّالها .

بينا أهلها منها فى رخاء وسرور ، إذا هم منها فى بلاء وغرور ، أحوال مختلفة وتارات متصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء فيها لا يدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض [١] مستهدفة ، ترميهم بسهامها ، وتقصمهم بحِمامها [٢] ، وكلٌّ حَتْفه فيها مقدور وحظه فيها موفور .

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من زهرة الدنيا على سبيل مَنْ قد مضى ممن كان أطول منكم أعماراً ، وأشد منكم بطشاً ، وأعمر دياراً ، وأبعد آثاراً ، فأصبحت أموالهم هامدة من بعد نقلتهم ، وأجسادهم بالية ، وديارهم خالية ، وآثارهم عافية [٣] فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق [٤] الممهدة ، الصخور والأحجار في القبور ، التى قد بنى على

---

(١) أى أهداف للدنيا ترميهم بكل دواهيها ومصائبها .

(٢) الحِمام : الموت .

(٣) أى انمحت آثارهم وطمست لهلاك أصحابها وفنائهم .

(٤) النمارق : الوسائد .

الخراب فناؤها ، وشُيِّد بالتراب بناؤها ، فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل عمارة موحشين ، وأهل محلة متشاغلين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان ، على ما بينهم من قرب الجوار ودُنوِّ الدار .

وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله (١) البلى ، وأظلتهم الجنادل (٢) والثرى ، فأصبحوا بعد الحياة أمواتاً ، وبعد غضارة (٣) العيش رفاتاً (٤) ، فُجِع بهم الأحباب ، وسكنوا التراب ، وظعنوا (٥) فليس لهم إياب ، هيهات هيهات ﴿ كَلاَّ إِنَّها كلمةٌ هو قائلُها ومِنْ ورائهِمْ برزخٌ إلى يَوْمِ يُبعثُونَ ﴾ (٦) .

وكأن قد صِرْتم إلى ما صاروا إليه من البلى ، والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع .

فكيف بكم لو قد تناهت الأمور ، وبُعثِرت القبور ، وحُصِّل ما فى الصدور ، ووقفتم للتحصيل ، بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب ، لإشفاقها من سالف الذنوب ، وهتكت عنكم الحجب والأستار ، وظهرت منكم العيوب والأسرار . هنالك ﴿ تُجْزَى كُلُّ نفسٍ بمَا كسبتْ ﴾ (٧) .

إن الله عز وجل يقول : ﴿ لِيجْزِى الذينَ أسَاؤوا بِمَا عملوا ويَجزىَ الذين أحْسَنوا بالحُسْنى ﴾ (٨) .

---

(١) الكلكل فى أصل اللغة : الصدر من كل شىء ، وقد يستعار الكلكل لما ليس بجسم كما هنا ، فها هو الفناء قد جثم بصدره على الإنسان فلا يستطيع منه فكاكاً .

(٢) الجنادل : الحجارة . والثرى : التراب .

(٣) غضارة العيش : سعته وبهجته .

(٤) الرفات : الحطام من كل شىء . وإذا تفتت العظم وتكسر فهو رفات .

(٥) ظعنوا : رحلوا .

(٦) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

(٧) غافر : ١٧ .

(٨) النجم : ٣١ .

وقال : ﴿ ووُضعَ الكتابُ فترَى المجرمِينَ مُشفقِينَ ممَّا فيهِ ويقولون يا وَيْلتنَا مَا لهذَا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولاَ كبيرةً إلاَ أحصَاهاَ ووجدُوا ما عملوا حاضِراً ولا يظلمَ ربُّك أحداً ﴾ (1) .

جعلنا الله وإياكم عالمين بكتابه ، مُتبعِّين لأوليائه ، حتى يُحلِّنا وإياكم دار المقامة من فضله ، إنه حميد مجيد » (2) .

* * *

(1) الكهف : ٤٩ .

(2) إحياء علوم الدين (٣ / ٢١٢ ، ٢١٣) ، وصفة الصفوة (١ / ١٦٩) .

(٢)

التقوى والعمل قبل حلول الأجل

عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن علياً رضى الله عنه شيَّع جنازة ، فلما وُضعت فى لحدها عجَّ [١] أهلها وبكَوْها .

فقال : ما تبكون ؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم لأذهلتهم معاينتهم عن ميتهم ، وإن له فيهم لعودة ثم عودة حتى لا يُبقى منهم أحداً .

ثم قام فقال :

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ضرب لكم الأمثال ، ووقَّتَ لكم الآجال ، وجعل لكم أسماعاً تعى ماعناها ، وأبصاراً لتجلو عن غشاها ، وأفئدة تفهم ما دهاها ، فى تركيب صورها وما أعمرها ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يضرب عنكم الذكر صفحاً ، بل أكرمكم بالنعم السوابغ ، وأرفدكم بأوفر الروافد ، وأحاط بكم الإحصاء ، وأرصد لكم الجزاء فى السراء والضراء .

فاتقوا الله عباد الله ، وجِدُّوا فى الطلب ، وبادروا بالعمل مقطع النهمات [٢] وهادم اللذات ، فإن الدنيا لا يدوم نعيمها ، ولا تُؤْمن فجائعها ، غرور حائل ، وشبح فائل [٣] ، وسناد مائل ، يمضى مستطرفاً ويردى مستردفاً ، بإتعاب شهواتها ، وختل تراضعها .

اتعظوا عباد الله بالعبر ، واعتبروا بالآيات والأثر ، وازدجروا بالنُّذر وانتفعوا بالمواعظ .

---

(١) عج أهل الجنازة : صاحوا وارتفع صوتهم بالصياح والعويل .

(٢) النهمات : جمع نهمة وهى الحاجة وولع الإنسان بالوصول لتحقيقها .

(٣) الفائل : العظيم الفخم مثل الفيل فى ضخامته ، فالموت شبح مخيف يلازم كل إنسان طول حياته .

فكأن قد علقتكم مخالب المنية ، وضمكم بيت التراب ، ودهمتكم مقطعات الأمور بنفخة الصور ، وبعثرة القبور ، وسياقة المحشر ، وموقف الحساب بإحاطة قدرة الجبار ، كل نفس معها سائق يسوقها لمحشرها ، وشاهد يشهد عليها بعملها .

﴿ وأشرقت الأرضُ بنُور ربِّها ووُضعَ الكتابُ وجِيءَ بالنبيين والشهداء وقُضِي بينهم بالحقِّ وهُمْ لا يُظْلمُونَ ﴾ .

فارتجت لذلك اليوم البلاد ، ونادى المنادى ، وكان يوم التلاق ، وكُشف عن ساق ، وكُسفَتْ الشمس ، وحُشرت الوحوش ، مكان مواطن الحشر ، وبدت الأسرار ، وهلكت الأشرار ، وارتجت الأفئدة ، فنزلت بأهل النار من الله سطوة مجيحة وعقوبة منيحة (١) ، وبرِّزتْ الجحيم لها كَلَبٌ (٢) ولَجَبٌ (٣) ، وقصيف (٤) رعد وتغيُّظ ووعيد ، تأجَّج جحيمها وغلا حميمها وتوقد سمُومها (٥) ، فلا ينفَسُ خالدها (٦) ، ولا تنقطع حسراتها ، ولا يقصم كُبُولها (٧) ، معهم ملائكة يُبشِّرونهم بنُزُل من حميم وتصلية جحيم ، عن الله محجوبون ، ولأوليائه مفارقون ، وإلى النار منطلقون .

عباد الله اتقوا الله تقية من كنع (٨) فخنع (٩) ، ووجل فرحل ، وحذر فأبصر فازدجر ، فاحتث طلباً ، ونجا هرباً ، وقدم للمعاد ، واستظهر (١٠)

---

(١) عقوبة شديدة تودى به تستوجب النواح والعويل عليه .

(٢) الكَلَبُ : صياح وصراخ كصراخ الذى قد عضه الكلب الضارى .

(٣) اللجب : ارتفاع الأصوات واختلاطها .

(٤) الرعد القاصف : الشديد الصوت الذى يهز القلوب وينزل الرعب فى النفوس .

(٥) السَّموم : الريح الحارة التى تلفح الوجوه بحرارتها وتشوى الأجساد .

(٦) النَّفَسُ : تفريج الكرب وزوال الشدة . والمقصود أن من خلد فى النار فلا يفرج الكرب عنه ولا يزول .

(٧) الكبول : جمع كَبْل وهو القيود الكبيرة الضخمة .

(٨) الكنوع : الذل والخضوع . والكانع : الذى تدانى وتصاغر وتقارب بعضه من بعض من شدة ذله وخضوعه .

(٩) خنع : ضرع وخضع ، وهو أيضاً الخضوع والذل .

(١٠) أستظهر بالزاد أى استعان به فى رحلته للآخرة . فحمل زاده فوق ظهره .

بالزاد ، وكفى بالله منتقماً وبصيراً ، وكفى بالكتاب خصماً وحجيجاً ، وكفى بالجنة ثواباً ، وكفى بالنار وبالاً وعقاباً ، وأستغفر الله لى ولكم »[1] .

* * *

(١) حلية الأولياء (١ / ٧٧ - ٧٩) وصفة الصفوة (١ / ١٧١ ، ١٧٢) .

(٣)

صفات الله عز وجل

عن النعمان بن سعد قال : كنت بالكوفة بدار الإمارة دار على بن أبى طالب إذ دخل علينا نوف بن عبد الله فقال : يا أمير المؤمنين ، بالباب أربعون رجلاً من اليهود . فقال على : علىَّ بهم .

فلما وقفوا بين يديه قالوا له : يا على صِفْ لنا ربك هذا الذى فى السماء كيف هو ؟ وكيف كان ؟ ومتى كان ؟ وعلى أى شىء هو ؟ .

فاستوى علىٌّ جالساً وقال :

« معشر اليهود ، اسمعوا منى ولا تبالوا ألا تسألوا أحداً غيرى . إن ربى عز وجل هو الأول لم يبد مما ، ولا ممازج معما ، ولا حال وهما ، ولا شبح يتقصى ، ولا محجوب فيحوى ، ولا كان بعد أن لم يكن فيقال حادث . بل جَلَّ أن يكيف المكيف للأشياء كيف كان . بل لم يزل ولا يزول لاختلاف الأزمان ، ولا لتقلب شأن بعد شأن .

وكيف يوصف بالأشباح ؟ وكيف يُنعت بالألسن الفصاح ؟ من لم يكن فى الأشياء فيقال بائن ، ولم يبن عنها فيقال كائن ، بل هو بلا كيفية ، وهو أقرب من حبل الوريد ، وأبعد فى الشبه من كل بعيد ، لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة ، ولا كرور لفظة ، ولا ازدلاف (١) رقوة (٢) ولا انبساط خطوة ، فى غسق ليل داج (٣) ولا إدلاج (٤) .

---

(١) الازدلاف : القرب والتقرب .

(٢) الرقوة فى أصل اللغة رمل قد تكوّم فوق بعضه ، فأصبح مثل درجة يعلوها الإنسان ليصل لشىء ما .

(٣) الدُّجَى : سواد الليل مع غَيْم .

(٤) الإدلاج : السير فى الليل سواء فى أوله أو فى آخره .

لا يتغشى عليه القمر المنير ، ولا انبساط الشمس ذات النور بضوئهما فى الكرور ، ولا إقبال ليل مقبل ، ولا إدبار نهار مدبر ، إلا وهو محيط بما يريد من تكوينه ، فهو العالم بكل مكان وكل حين وأوان وكل نهاية ومدة .

والأمد إلى الخلق مضروب ، والحد إلى غيره منسوب ، لم يخلق الأشياء من أصول أولية ، ولا بأوائل كانت قبله بدية ، بل خلق ما خلق فأقام خلقه ، وصور ما صور فأحسن صورته ، توحَّد فى عُلوِّه فليس لشىء منه امتناع ، ولا له بطاعة شىء من خلقه انتفاع ، إجابته للداعين سريعة ، والملائكة فى السماوات والأرضين له مطيعة ، علْمه بالأموات البائدين كعِلْمه بالأحياء المتقلبين ، وعلمه بما فى السماوات العلى كعلمه بما فى الأرض السفلى وعلمه بكل شىء .

لا تحيره الأصوات ، ولا تشغله اللغات ، سميع للأصوات المختلفة ، بلا جوارح له مؤتلفة ، مدبر بصير ، عالم بالأمور ، حىٌّ قيوم .

سبحانه كلَّم موسى تكليماً بلا جوارح ولا أدوات ، ولا شفة ولا لهوات ، سبحانه وتعالى عن تكييف الصفات ، من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود ، ومن ذكر أن الأماكن به تحيط لزمته الحيرة والتخليط ، بل هو المحيط بكل مكان .

فإن كنت صادقاً أيها المتكلِّف لوصف الرحمن ، بخلاف التنزيل والبرهان ، فَصِفْ لى جبريل وميكائيل وإسرافيل . هيهات .

أتعجز عن صفة مخلوق مثلك وتصف الخالق المعبود ، وأنت تدرك صفة رب الهيئة والأدوات ، فكيف مَنْ لم تأخذه سنَة ولا نوم ، له ما فى الأرضين والسماوات وما بينهما وهو رب العرش العظيم »[1] .

* * *

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم (١ / ٧٣) .

(٤)

العبد بين الدنيا والموت

قال على كرم الله وجهه فى خطبته :

« أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مَثَلُكم ومثلُها كمثَلِ قوم فى سفر سلكوا طريقاً وكأنهم قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه ، وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ؟

وكم عسى أن يبقى مَنْ له يوم فى الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها ؟

فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونَعْمائها فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه » [١] .

* * *

(٥)

عن الأصمعى قال : بلغنى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كان يقـول :

« إنما المرء فى الدنيا غرض تنتضل [٢] فيه المنايا ، ونهب للمصائب ، ومع كل جرعة شَرَقٌ ، وفى كل أكلة غصص [٣] ، ولا ينال العبد فيها نعمة

(١) إحياء علوم الدين (٣ / ٢١٣) .

(٢) الانتضال : التسابق فى إصابة الأهداف فى الرماية ، والمقصود أن المنايا وأنواع المهالك ترمى الإنسان بسهامها بل تتسابق فى الرماية لإصابته .

(٣) غصَّ الإنسان بالشراب أو الطعام إذا شرق به أو وقف فى حلقه .

إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، فنحن أعوان الحتوف [1] ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء ، فمن أين نرجو البقاء ؟ وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرعا الكَرَّة في هدم ما بنيا ، وتفريق ما جمعا ، فاطلبوا الخير وأهله ، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه ، وشراً من الشر فاعله » [2] .

* * *

(٦)

وخطب رضى الله عنه فقال بعد حَمْد الله :

« أيها الناس اتقوا الله ، فما خُلِق امرؤ عبثاً فيلهو ، ولا أُهمِلَ سُدىً فيلغو ، ما دنياه التى تحسنت إليه بخلف من الآخرة التى قبحها سوء النظر إليه ، وما الخسيس الذى ظفر به من الدنيا بأعلى همته ، كالآخر الذى ذهب من الآخرة من سُهْمته [3] » [4] .

* * *

(٧)

قال على بن أبى طالب فى وصف الدنيا وقد ذمَّها رجل عنده :

« الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ومهبط وحى الله ، ومُصلَّى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ،

---

(١) الحَتْفُ : الموت . وجمعه حتوف .

(٢) الأمالى – أبو على القالى – الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢ / ٦٢) .

(٣) السُّهْمة : النصيب .

(٤) إعجاز القرآن – أبو بكر الباقلانى – تحقيق السيد أحمد صقر – دار المعارف ١٩٧٧ (ص ١٤٦) .

ومتجر أوليائه ، ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة .

فمَنْ ذا الذى يذمها وقد آذنت ببَيْنها [1] ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ، ترغيباً وترهيباً .

فيا أيها الذام للدنيا ، المعلل نفسه ، متى خدعتك الدنيا أم متى استذمت إليك ؟ أبمصارع آبائك فى البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك فى الثَّرى؟

كم مرَّضْتَ بيديك ، وكم علَّلْتَ [2] بكفَّيك تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دواؤك ، ولا ينفعه بكاؤك ، ولا تنجيه شفقتك ، ولا تشفع فيه طلبتك » [3] .

* * *

(٨)

قال على بن أبى طالب :

« أوصيكم بأربع لو ضربتم إليها آباط الإبل لكُنَّ لها أهلاً :

لا يرجُوَنَّ أحدٌ منكم إلا ربَّه ، ولا يخافنَّ إلا ذنبه ، ولا يستحى أحد إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ولا إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه ، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قُطِع الرأس ذهب الجسد ، وكذلك إذا ذهب الإيمان » [4] .

* * *

(١) أى : أعلمت الناس وأعلنت بفراقها .

(٢) تعليل المريض بكفَّيك أى سقْيه الدواء وغيره مرة بعد مرة .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ (٢ / ١٩٠) ، وعيون الأخبار لابن قتيبة (٢ / ٣٢٩) .

(٤) البيان والتبيين (٢ / ٧٧) ، وعيون الأخبار (٢ / ٢٠) .

(٩)

الجهاد خير تجارة تنجينا من العذاب الأليم

قال يوم صفين مُحرِّضاً الناس على القتال :

« إن الله عز وجل قد دلَّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليـم ، تُشفـى [١] بكم على الخير : الإيمان بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ، والجهاد فى سبيل الله تعالى ذكره ، وجعل ثوابه مغفرة الذنب ، ومساكن طيبة فى جنات عدن .

ثم أخبركم أنه يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدِّموا الدَّارع [٢] وأخِّروا الحاسر ، وعَضُّوا على الأضراس ، فإنه أنْبَى للسيـوف عن الهـام [٣] ، والتووا فى أطراف الرماح ، فإنه أصون للأسنَّة .

وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب ، وأميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل ، وأوْلى بالوقار .

راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ، ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم ، فإن المانع للذِّمار [٤] والصابر عند نزول الحقائق هم أهل الحفاظ الذين يحفون براياتهم ويكنفونها [٥] ، يضربون حِفَافَيْها [٦] خلفها وأمامها ، ولا يضعونها .

---

(١) أشفى على الشيء : أشرف عليه وقاربه .

(٢) الدارع هو من لبس الدرع يحميه من السهام والرماح .

(٣) الهام جمع هامة وهى الرأس . أنبى : أبعد .

(٤) الذمار : كل ما يلزم حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه .

(٥) كنف الشيء واكتنفه صار حواليه وأحاطوا به من كل جانب .

(٦) حفافيها : جانبيها .

أجزأ امرؤ وَقْذ قِرْنه [1] ـ رحمكم الله ـ وآسى أخاه بنفسه ، ولم يَكِل قِرْنه إلى أخيه ، فيكسب بذلك لائمة ، ويأتى به دناءة ، وأنَّى لا يكون هذا هكذا ، وهذا يقاتل اثنين ، وهذا ممسك بيده يُدخل قِرْنه على أخيه هارباً منه ، أو قائماً ينظر إليه .

من يفعل هذا يمقته الله عز وجل ، فلا تعرَّضوا لمقت الله سبحانه فإنما مردُّكم إلى الله .

قال الله عزَّ من قائل ﴿ لَنْ ينفعَكُمْ الفرارُ إنْ فررتُمْ من الموتِ أو القتل وإذاً لا تُمتَّعُون إلاَّ قليلاً ﴾ (الأحزاب : ١٦)

وأيم الله لئن سلمتم من سيف العاجلة لا تسلَمُون من سيف الآخرة ، واستعينوا بالصدق والصبر ، فإن بعد الصبر يُنزل الله النصر .

* * *

(١) الوقذ : شدة الضرب . والقِرْن : النظير والندُّ فى الشجاعة والحرب .

(١٠)

بين الإيمان والقرآن

عن على رضى الله عنه قال :

« أخبركم بمن أعطى القرآن ولم يُعْطَ الإيمان ، ومَنْ أعطى الإيمان ولم يُعْطَ القرآن ، ومَنْ أعطى القرآن والإيمان . ومَنْ لم يُعْطَ القرآن ولا الإيمـان .

فأما مَنْ أعطِى الإيمان ولم يُعْط القرآن فهو بمنزلة ثمرة طيبة الطعم لا ريح لها .

ومنزلة مَنْ أعطِى القرآن ولم يعط الإيمان منزلة الآسة طيبة الريح خبيثة الطعم .

ومنزلة مَنْ أعطى القرآن والإيمان بمنزلة الأترجة طيبة الطعم ، طيبة الـريح .

ومنزلة مَنْ لم يُعْط القرآن ولا الإيمان مثل الحنظلة خبيثة الطعم خبيثة الـريـح »[١] .

(١١)

عن أبى وائل قال : خطب علىٌّ الناسَ بالكوفة فسمعته يقول فى خطبتـه :

« أيها الناس إنه من يتفقر افتقر ، ومن يعمر يبتلى ، ومن لا يستعد للبلاء إذا ابتُلِى لا يصبر ، ومن ملك استأثر ، ومن لا يستشير يندم »

وكان يقول من وراء هذا الكلام :

---

(١) الأمثال من الكتاب والسنة ـ الحكيم الترمذى ـ تحقيق على البجاوى ـ دار التراث ـ القاهرة ـ ص ٣٥ .

« يوشك أن لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ومن القرآن إلا رسمه » .

وكان يقول : « ألا لا يستحى الرجل أن يتعلم ، ومَنْ يسأل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، مساجدكم يومئذ عامرة وقلوبكم وأبدانكم خربة من الهدى ، شر من تحت ظل السماء ، فقهاؤكم منهم ، تبدو الفتنة وفيهم تعود » .

فقام رجل فقال : ففيم يا أمير المؤمنين ؟

قال : إذا كان الفقه فى رُذَالكم [1] ، والفاحشة فى خياركم ، والملك فى صغاركم ، فعند ذلك تقوم الساعة »[2] .

* * *

(١٢)

الزمان العضوض

خطب على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال :

« يأتى على الناس زمان عضوض [3] ، يعضُّ الموسر على ما فى يديه ولم يؤمر بذلك . قال الله عز وجل : ﴿ وَلاَ تَنْسَوا الفضلَ بينكُمْ ﴾ ، وينهدُّ الأشرار ، ويُستذلُّ الاخيار ، ويبايع المضطرون . قال : وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطرين وعن بيع الغَرَر [4] وعن بيع الثمرة قبل أن تدرك [5] » [6] .

(١) رذال الناس : الأخساء منهم الأقل منزلة .

(٢) منتخب كنز العمال ـ المتقى الهندى ـ (٦ / ٣٢٣) وعزاه للبيهقى فى « شُعَب الإيمان » .

(٣) زمان عضوض قد عض الناس بمصائبه فأصبحوا أكثر حرصاً وعضاً على ما لديهم .

(٤) بيع الغرر : ما كان له ظاهر يغرُّ المشترى وباطن مجهول . والغرر أيضاً الخطر وهو مثل بيع السمك فى الماء والطير فى الهواء .

(٥) أى بيع الثمرة قبل أن تنضج . (٦) مسند أحمد (١ / ١١٦) .

(١٣)

ضوابط إقامة الحدود

وخطب رضى الله عنه فقال :

« يا أيها الناس أقيموا على أرقائكم الحدود ، من أحصن منهم ومن لم يحصن ، فإن أمَةً لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أقيم عليها الحدَّ فأتيتها فإذا هي حديث عهد بنفاس ، فخشيت إن أنا جلدتها أن تموت ، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال : أحسنت » (١) .

*　　*　　*

(١٤)

كلمات قدسية

وخطب رضى الله عنه على منبر الكوفة فقال :

« كنت إن لم أسأل النبى ﷺ ابتدأنى ، وإن سألته عن الخير أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل فقال : يقول الله تعالى : وارتفاعى فوق عرشى ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهت من معصيتى ثم تحوَّلوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى ، وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتى ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتى إلى ما يكرهون من غضبى » (٢) .

---

(١) مسند أحمد (١ / ١٥٦) .

(٢) كنز العمال (٨ / ٢٠٣) وحياة الصحابة للكاندهلوى (٣ / ٤٧٨) .

رثاؤه لوفاة أبى بكر

لما قُبض أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ، كيوم قبض النبى ﷺ ، وجاء علىٌّ باكياً مسترجعاً (١) ، وهو يقول : اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر فقال :

رحمك الله يا أبا بكر ، كنت إِلْفَ رسول الله ﷺ وأُنْسه ، وثقته وموضع سرِّه ، كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً ، وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين الله ، وأحوطهم على رسول الله ، وأثبتهم على الإسلام ، وأيمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة ، وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسول الله ﷺ سَنَناً وهدياً ، ورحمة وفضلاً ، وأشرفهم منزلة ، ، وأكرمهم عليه ، وأوثقهم عنده .

فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر .

صدَّقت رسول الله ﷺ حين كذَّبه الناس ، فسماك فى تنزيله صدِّيقاً ، فقال : ﴿ والذِى جاء بالصِّدقِ وصدَّق بهِ ﴾ (الزمر : ٣٣)

واسَيْتَهُ حين بخلوا ، وقمت معه عند المكاره حين قعدوا ، وصحبته فى الشدائد أكرم الصحبة ، ثانى اثنين وصاحبه فى الغار ، والمنزل عليه السكينة والوقار ، ورفيقه فى الهجرة ، وخليفته فى دين الله وفى أمته أحسن الخلافة حين ارتد الناس ، فنهضت حين وهن أصحابك ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت حين تتعتعوا ، مضيت بنور إذ وقفوا ، واتبعوك فَهُدُوا .

وكنت أصوبهم منطقاً ، وأطولهم صمتاً ، وأبلغهم قولاً ، وأكثرهم رأياً ، وأشجعهم نفساً ، وأعرفهم بالأمور ، وأشرفهم عملاً .

(١) أى يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

كنت للدين يعسوباً [1] ، أولاً حين نفر عنه الناس ، وآخراً حين قفلوا [2] ، وكنت للمؤمنين أباً رحيماً إذ صاروا عليك عيالاً ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا ، شمَّرْتَ إذ خنعُوا وعلوْتَ إذ هلعوا ، وصبرت إذ جزعوا ، وأدركت أوتار ما طلبوا ، وراجعوا رشدهم برأيك فظفروا ، ونالوا بك ما لم يحتسبوا .

وكنت كما قال رسول الله ﷺ أمَنَّ الناس عليه فى صحبتك وذات يدك ، وكنت كما قال : ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى أمر الله ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً فى أعين الناس ، كبيراً فى أنفسهم .

لم يكن لأحد فيك مَغْمَزٌ ، ولا لأحد مطمعٌ ، ولا لمخلوق عندك هوادة ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز ، حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، القريب والبعيد عندك سواء ، أقرب الناس إليك أطوعهم لله .

شأنك الحق والصدق والرفق ، وقولك حكم وحَتْمٌ ، وأمرك حلم وحزم ، ورأيك علم وعزم ، فأبلغت وقد نهج السبيل ، وسهل العسير ، وأطفأت النيران ، واعتدل بك الدين ، وقوى الإيمان ، وظهر أمر الله ولو كره الكافرون .

وأتعبت مَنْ بعدك إتعاباً شديداً ، وفُزْتَ بالخير فوزاً عظيماً ، فجللت عن البكاء ، وعَظُمتْ رزيَّتك فى السماء ، وهَدَّت مصيبتك الأيام .

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فو الله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبداً ، فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمنا أجره ، ولا أضلنا بعده » . وسكت الناس حتى انقضى كلامه ، ثم بكوا حتى عَلَتْ أصواتهم [3] .

---

(١) يعسوب الدين : سيد الناس فى الدين يومئذ ، وأصله ذكر النحل وأطلق على كل سيد أو رئيس يعسوباً .

(٢) قفلوا : رجعوا . والمقصود حين ارتدوا .

(٣) إعجاز القرآن ـ الباقلانى (ص ١٤٣) .

(١٦)

خطبة جامعة لخصال الخير

قام على بن أبى طالب خطيباً فقال :

« الحمد لله فاطر الخلق وفالق الإصباح ، وناشر الموتى وباعث مَنْ فى القبور ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم بتقوى الله ، فإن أفضل ما توسل به العبد الإيمان والجهاد فى سبيله ، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة ، وإقام الصلاة فإنها الملة ، وإيتاء الزكاة فإنها من فريضته ، وصوم شهر رمضان فإنه جُنَّة [١] من عذابه ، وحج البيت فإنه مَنْفَاة للفقر مدحضة [٢] للذنب ، وصلة الرحم فإنها مَثْراةٌ [٣] فى المال منسأة [٤] فى الأجل محبة فى الأهل ، وصدقة السر فإنها تُكفِّر الخطيئة وتطفىء غضب الرب ، وصنع المعروف فإنه يدفع ميتة السوء ويقى مصارع الهول .

أفيضوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقون فإن وعد الله أصدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ فإنه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فإنها أفضل السنن ، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث ، وتفقهوا فى الدين فإنه ربيع القلوب .

واستشفوا بنوره فإنه شفاء لما فى الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص ، وإذا قرىء عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .

---

(١) جُنَّة : وقاية .

(٢) مدحضة للذنب : مذهبة له ماحقة له .

(٣) أى سبباً للثراء والغنى .

(٤) منسأة فى الأجل : زيادة فى العمر .

وإذا هُديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون ، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذى لا يستقيم عن جهله ، بل قد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه ، على هذا الجاهل المتحير فى جهله ، وكلاهما مضلل مثبور .

لا ترتابوا فتشكُّوا ، ولا تشكُّوا فتكفروا ، ولا تُرخِّصوا لأنفسكم فتذهلوا [1] ، ولا تذهلوا فى الحق فتخسروا ، ألا وإن من الحزم أن تتقوا ، ومن الثقة ألاَّ تغتروا ، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه ، وإن أغشَّكُم لنفسه أعصاكم لربه ، مَنْ يُطعِ الله يأمن ويستبشر ، ومن يعص الله يَخَفْ ويندم ، ثم سلوا الله اليقين وارغبوا إليه فى العافية ، وخير ما دام فى القلب اليقين .

إن عوازم الأمور أفضلها ، وإن محدثاتها شرارها ، وكل محدث بدعة ، وكل مُحدث مبتدع ، ومن ابتدع فقد ضيع ، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سُنَّةً .

المغبون مَنْ غبن دينه ، والمغبون مَنْ خسر نفسه ، وإن الرياء من الشرك ، وإن الإخلاص من العمل والإيمان ، ومجالس اللهو تُنْسِى القرآن ويحضرها الشيطان وتدعو إلى كل غيٍّ ، ومجالسة النساء تُزِيغ القلوب وتطمح إليه الأبصار وهى مصائد الشيطان .

اصدقوا الله فإن الله مع مَنْ صدق ، وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للإيمان ، ألا إن الصدق على شرف منجاة وكرامة ، وإن الكذب على شرف ردىً وهلَكَةً .

ألا وقولوا الحق تُعرفُوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة إلى مَنْ ائتمنكم ، وصِلُوا أرحام مَنْ قطعكم ، وعودوا بالفضل على مَنْ حرمكم ، وإذا عاهدتم فأوفوا ، وإذا حكمتم فاعدلوا ، ولا تفاخروا بالآباء

---

(١) الذهول : ترك الشىء تناسياً له عن عمد أو شغله شاغل عنه ، فإن الإكثار من الترخص فى الأمور يشغل الإنسان كثيراً عن واجبات الدين .

ولا تنابزوا [١] بالألقاب ولا تمازحوا ، ولا يغضب بعضكم بعضاً .

وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين [٢] وفى سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم ، وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها .

﴿ وتَعاونُوا على البرِّ والتقْوى ولا تَعاونُوا على الإثم والعدوان ، واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ شديدُ العقاب ﴾ [٣] .

وأكرموا الضيف ، وأحسنوا إلى الجار ، وعودوا المرضى ، وشيِّعوا الجنازة ، وكونوا عباد الله إخواناً .

أما بعد ، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أظلَّتْ وأشرفت باطلاع ، وإن المضمار اليوم وغداً السباق ، وإن السُّبْقة [٤] الجنة والغاية النار .

ألا وإنكم فى أيام مهل من ورائها أجل يحثه عجل ، فمَنْ أخلص لله عمله فى أيام مهله قبل حضور أجله فقد أحسن عمله ونال أمله ، ومَنْ قصر عن ذلك فقد خسر عمله وخاب أمله وضرَّه أمله ، فاعملوا فى الرغبة والرهبة ، فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله واجمعوا معها رهبة ، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة ، فإن الله قد تأذن المسلمين بالحسنى ولمن شكر بالزيادة .

وإنى لم أرَ مثل الجنة نام طالبها ولا كالنار نام هاربها ، ولا أكثر مكتسباً من شىء كسبه ليوم تُدَّخر فيه الذخائر وتُبْلى فيه السرائر وتجتمع فيه الكبائر .

---

(١) التنابز بالألقاب : رمى الناس بعضهم بعضاً بالألقاب السيئة المهينة .

(٢) الغارمين : الذين لزمتهم الديون فى غير معصية .

(٣) سورة المائدة : ٢ .

(٤) أى أن الجنة مجال التسابق والتنافس .

وإنه مَنْ لا ينفعه الحق يضره الباطل ، ومَنْ لا يستقيم به الهدى يجر به الضلال ، ومَنْ لا ينفعه اليقين يضره الشك ، ومَنْ لا ينفعه حاضره فعــازبه [1] عنه أعور وغائبه عنه أعجز .

وإنكم قد أُمرتم بالظعن [2] ودُلُلْتُم على الزاد ، ألا وإن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيُبعد عن الحق .

ألا وإن الدنيا قد ترحلَتْ مدبرة ، وإن الآخرة قد ترحلت مقبلة ، ولهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة إن استطعتم ، ولا تكونوا من بنيِّ الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل » [3] .

* * *

(١٧)

خطبة فى أهل الكوفة

صعد أمير المؤمنين على بن أبى طالب منبر الكوفة بعد الفتنة وفراغه من النهروان ، فحمد الله وخنقته العَبْرة [4] ، فبكى حتى اخضلت [5] لحيته بدموعه وحرَّت [6] ، ثم نفض لحيته فوقع رشاشها على ناس من الناس ، فكنا نقول : إن مَنْ أصابه من دموعه فقد حرَّمه الله على النار ثم قال :

(١) العازب : الغائب البعيد .

(٢) الظعن : الرحيل .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ٣٠٧) ، وحياة الصحابة (٣ / ٤٧٢ ـ ٤٧٤) ، وجاء بعضها فى إعجاز القرآن للباقلانى (ص ١٤٥) .

(٤) العبرة : الدمعة قبل أن تفيض ، وقيل هى تردد البكاء فى الصدر .

(٥) اخضلت : ابتلت .

(٦) حرت : كان دمعه حاراً .

« يا أيها الناس لا تكونوا ممن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التوبة لطول الأمل ، يقول فى الدنيا قول الزاهدين ، ويعمل فيها عمل الراغبين ، إن أُعطى منها لم يشبع ، وإن مُنِع منها لم يقنع ، يعجز عن الشكر ويبتغى الزيادة .

ويُؤْمر ولا يأتى ، ويُنْهى ولا ينتهى ، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم ، ويبغض الظالمين وهو منهم ، تغلبه نفسه على ما يظن ، ولا يغلبها على ما يستيقن .

إن استغنى فُتِن ، وإن مرض حزن ، وإن افتقر قنط [1] ووهن ، فهو بين الذنب والنعمة يرتع ، يُعَافَى فلا يشكر ، ويُبْتلَى فلا يصبر ، كأن المحذَّر من الموت سواه ، وكأن من وُعِدَ وزُجِر غيره .

يا أعراض المنايا ، يا رهائن الموت ، يا وعاء الأسقام ، يا نُهْبة [2] الأيام ، ويا ثقل الدهر ، ويا فاكهة الزمان ، ويا نور الحدثان ، ويا أخرس عن الحجج ، ويا مَنْ غمرته الفتن ، وحِيلَ بينه وبين معرفة العبر .

بحقٍّ أقول : ما نجا مَنْ نجا إلا بمعرفة نفسه ، وما هلك مَنْ هلك إلا من تحت يده .

قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا قُوا أنفسكُم وأهليكُمْ نَاراً ﴾ (التحريم : ٦)

جعلنا الله وإياكم ممن سمع الوعظ فقبل ، ودُعِى إلى العمل فعمل » [3] .

* * *

(١) قنط : يئس .

(٢) النهبة : الانتهاب ، فالأيام تنهب منه عمره وصحته نهباً .

(٣) منتخب كنز العمال ـ المتقى الهندى (٦ / ٣٢٥) وعزاه لابن النجار .

(١٨)

مـن هم أهل السنة والجماعة

كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخطب فقام إليه رجل فقال :

يا أمير المؤمنين ، أخبرنى مَنْ أهل الجماعة ؟ ومَنْ أهل الفُرْقة ؟ ومَنْ أهل السنة ؟ ومَنْ أهل البدعة ؟

فقال : ويحك ، أما إذ سألتنى فافهم عنى ، ولا عليك أن لا تسأل عنها أحداً بعدى .. فأما أهل الجماعة فأنا ومَنْ اتبعنى إن تلوا ذلك الحق عن أمر الله وأمر رسوله ، وأما أهل الفُرْقة فالمخالفون لى ولمن اتبعنى وإن كثروا .

وأما أهل السنة فالمتمسكون بما سَنَّهُ الله لهم ورسوله وإن قَلُّوا ، وأما أهل البدعة فالمخالفون لأمر الله ولكتابه ولرسوله العاملون برأيهم وأهوائهم وإن كثروا ، وقد مضى منهم الفوج الأول وبقيت أفواج ، وعلى الله قَصْمُها واستئصالها عن جدبة [1] الأرض » .

فقام إليه عمار فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس يذكرون الفىء ويزعمون أن مَنْ قاتلنا فهو وماله وأهله فَىءٌ لنا وولده .

فقام رجل من بكر بن وائل يُدعى عبّاد بن قيس ــ وكان ذا عارضة ولسان شديد ــ فقال : يا أمير المؤمنين ، والله ما قسمت بالسَّوية ، ولا عدلْتَ فى الرعية .

فقال على : ولِمَ ويحك ؟

قال : لأنك قسمت ما فى العسكر وتركت الأموال والنساء والذرية .

فقال على : أيها الناس مَنْ كان به جراحة فليداوها بالسمن .

(١) الأرض الجدبة : الأرض التى ليس بها قليل ولا كثير ولا مرتع ولا كلأ .

فقال عباد : جئنا نطلب غنائمنا فجاءنا بالتُّرَّهَات [1] .

فقال له على : إن كنت كاذباً فلا أماتك الله حتى تدرك غلام ثقيف .

فقال رجل من القوم : ومَنْ غلام ثقيف يا أمير المؤمنين ؟

فقال : رجل لا يدع لله حرمة إلا انتهكها .

قال : فيموت أو يُقْتل ؟

قال : بل يقصمه قاصم الجبارين ، قتْلة بموت فاحش ، يحترق منه دبره لكثرة ما يجرى من بطنه . يا أخا بكر أنت امرؤ ضعيف الرأى ، أو ما علمت أنَّا لا نأخذ الصغير بذنب الكبير ، وأن الأموال كانت لهم قبل الفرقة ، وتزوجوا على رِشْدة ، وولدوا على الفطرة ؟

وإنما لكم ما حوى عسكرهم ، وما كان فى دورهم فهو ميراث لذريتهم ، فإنْ عدا علينا أحد منهم أخذناه بذنبه ، وإن كفَّ عنا لم نحمل عليه ذنب غيره .

يا أخا بكر لقد حكمتَ فيهم بحكم رسول الله ﷺ فى أهل مكة ، قسم ما حوى العسكر ، ولم يعرض لما سوى ذلك ، وإنما اتبعت أثره حَذْو النعل بالنعل .

يا أخا بكر أما علمت أن دار الحرب يحل ما فيها ، وأن دار الهجرة يَحرمُ ما فيها إلا بحق ، فمهلاً مهلاً رحمكم الله ، فإن أنتم لم تصدقونى وأكثرتم علىَّ ، وذلك أنه تكلم فى هذا غير واحد ، فأيكم يأخذ أمه عائشة بسهمه؟

قالوا : لا أينا يا أمير المؤمنين ، بل أصبْتَ وأخطأنا ، وعلمت وجهلنا ، ونحن نستغفر الله .

وتنادى الناس من كل جانب : أصبْتَ يا أمير المؤمنين ، أصاب الله بك

(١) الترهات : الأباطيل .

الرشاد والسداد .

فقام عمار وقال : يا أيها الناس ، إنكم والله إن اتبعتموه وأطعتموه لم يضل بكم عن منهاج نبيكم قيس شعرة ، وكيف يكون ذلك وقد استودعه رسول الله ﷺ المنايا والوصايا وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران إذ قال له رسول الله ﷺ : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أن لا نبى بعدى » فضلاً خصَّه الله به إكراماً منه لنبيه ﷺ حيث أعطاه ما لم يُعطِه أحداً من خلقه .

ثم قال على : انظروا رحمكم الله ما تؤمرون به فامضوا له ، فإن العالم أعلم بما يأتى من الجاهل الخسيس الأخسِّ ، فإنى حاملكم إن شاء الله تعالى إن أطعتمونى على سبيل الجنة ، وإن كان ذا مشقة شديدة ومرارة عتيدة ، وإن الدنيا حلوة لمن اغترَّ بها من الشقوة والندامة عما قليل .

ثم إنى مخبركم أن خيلاً من بنى إسرائيل أمرهم نبيهم ألا يشربوا من النهر ، فلجُّوا فى ترك أمره فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فكونوا رحمكم الله من أولئك الذين أطاعوا نبيهم ولم يعصوا ربهم .

وأما عائشة فأدركها رأى النساء وشىء كان فى نفسها علىَّ يغلى فى جوفها كالمرْجَل (١) ، ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلىَّ ، لم تفعل ، ولها بعد ذلك حرمتها الأولى ، والحساب على الله يعفو عمَّنْ يشاء ويعذب مَنْ يشاء .

فرضى بعد ذلك أصحابه وسلَّموا لأمره بعد اختلاط شديد فقالوا : يا أمير المؤمنين حكمت والله فينا بحكم الله ، غير أنَّا جهلنا ومع جهلنا لم نأتِ ما يكره أمير المؤمنين .

فقام عباد بن قيس وقال : يا أمير المؤمنين أخبِرْنا عن الإيمان .

فقال : نعم إن الله ابتدأ الأمور فاصطفى لنفسه منها ما شاء ،

---

(١) المرجل : كل ما طُبِخ فيها من قدْر وغيرها من الأوانى .

واستخلص ما أحب ، فكان مما أحب أنه ارتضى الإسلام واشتقه من اسمه ، فنحله [1] مَنْ أحب من خلقه ، ثم شقه فسهل شرائعه لمن ورده ، وعزّز أركانه على مَنْ حاربه .

هيهات من أن يصطلمه مصطلم [2] ، جعله سلْماً لمن دخله ، ونوراً لمن استضاء به ، وبرهاناً لمن تمسك به ، وديناً لمن انتحله ، وشرفاً لمن عرفه ، وحجة لمن خاصم به ، وعلماً لمن رواه ، وحكمة لمن نطق به ، وحبلاً وثيقاً لمن تعلق به .

فالإيمان أصل الحق ، والحق سبيل الهدى ، وسيفه جامع الحلية ، قديم العدة ، الدنيا مضماره ، والغنيمة حليته ، فهو أبلج [3] منهاج ، وأنور سراج ، وأرفع غاية ، وأفضل داعية ، بشير لمن سلك قصد القاصدين ، واضح البيان ، عظيم الشان .

الأمن منهاجه ، والصالحات مناره ، والفقه مصابيحه ، والمحسنون فرسانه ، فعصم السعداء بالإيمان وخذل الأشقياء بالعصيان ، من بعد اتجاه الحجة عليهم بالبيان ، إذ وضح لهم منار الحق وسبيل الهدى ، فتارك الحق مشئوم يوم التغابن ، داحضة حجته عند فوز السعداء بالجنة .

فالإيمان يُستدلُّ به على الصالحات ، وبالصالحات يعمر الفقه ، وبالفقه يرهب الموت ، وبالموت يختم الدنيا ، وبالدنيا تخرج الآخرة ، وفى القيامة حسرة أهل النار ، وفى ذكر أهل النار موعظة أهل التقوى .

التقوى غاية لا يهلك مَنْ اتبعها ، ولا يندم مَنْ عمل بها ، لأن بالتقوى فاز الفائزون ، وبالمعصية خسر الخاسرون ، فليزدجر أهل النُّهَى [4] ،

---

(١) نحله : أعطاه ووهبه .

(٢) الاصطلام : الاستئصال .

(٣) أبلج : أوضح .

(٤) النُّهَى : العقول والألباب .

وليتذكر أهل التقوى ، فإن الخلق لا مقصر لهم يوم القيامة دون الوقوف بين يدى الله .

مر قلبى فى مضمارها نحو القصبة العليا إلى الغاية القصوى مهطعين بأعناقهم نحو داعيها ، قد شخصوا من مستقر الأجداث (١) والمقابر إلى الضرورة أبداً .

لكل دار أهلها ، قد انقطعت بالأشقياء الأسباب ، وأفضوا إلى عدل الجبار ، فلا كَرَّة (٢) لهم إلى دار الدنيا ، فتبرأوا من الذين آثروا طاعتهم على طاعة الله ، وفاز السعداء بولاية الإيمان .

فالإيمان يا ابن قيس على أربع دعائم : الصبر واليقين والعدل والجهاد

* فالصبر من ذلك على أربع دعائم : الشوق والشفق والزهد والترقب .
فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومَنْ أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع فى الخيرات .

* واليقين من ذلك على أربع دعائم : تبصرة الفطنة وموعظة العبرة وتأويل الحكمة وسنة الأولين .

فمَنْ أبصر الفطنة تأوَّل الحكمة ، ومَنْ تأوَّل الحكمة عرف العبرة ، ومَنْ عرف العبرة عرف السنة ، ومَنْ عرف السنة فكأنما كان فى الأولين ، فاهتدى إلى التى هى أقوم .

* والعدل من ذلك على أربع دعائم : غائص الفهم ، وغمرة العلم ، وزهرة الحكم ، وروضة الحلم .

فمَنْ فهم فسر جميع العلم ، ومَنْ علم عرف شرائع الحكم ، ومَنْ عرف الشرائع لم يضل ، ومَنْ حلم لم يفرط أمره ، وعاش فى الناس حميداً .

(١) الأجداث : القبور .
(٢) فلا كَرَّة : فلا رجعة .

* والجهاد من ذلك على أربع دعائم : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والصدق فى المواطن ، وشنآن [1] الفاسقين .

فمَنْ أمر بالمعروف شدَّ ظهر المؤمن ، ومَنْ نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومَنْ صدق فى المواطن قضى الذى عليه ، ومَنْ شنأ المنافقين وغضب لله غضب الله له .

فقام إليه عمار فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما بُنِى كما أخبرتنا عن الإيمان ؟

قال : نعم يا أبا اليقظان . بُنِى الكفر على أربع دعائم : الجفاء والعمى والغفلة والشك .

فمَنْ جفا فقد احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء وأصرَّ على الحنْث العظيم ، ومَنْ عمى نسى الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة ، ومَنْ غفل حاد عن الرشد وغرَّته الأمانى وأخذته الحسرة والندامة ، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب .

ومن عثى [2] فى أمر الله شك ، ومن شكَّ تعالى الله عليه فأذلَّه بسلطانه وصغَّره بجلاله ، كما فرط فى أمره فاغتر بربه الكريم ، والله أوسع بما لديه من العفو والتيسير ، فمن عمل بطاعة الله اجتلب بذلك ثواب الله ، ومن تمادى فى معصية الله ذاق وبال نقمة الله ، فهنيئاً لك يا أبا اليقظان ، عقبى لا عقبى غيرها ، وجنات لا جنات بعدها .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، حَدِّثنا عن ميت الأحياء .

قال : نعم إن الله بعث النبيين مبشرين ومنذرين فصدَّقهم مُصدِّقون وكذَّبهم مكذبون ، فيقاتلون من كذبهم بمن صدقهم فيظهرهم الله ، ثم يموت الرسل فتخلف خلوف [3] .

---

(١) شنآن الفاسقين : بغضهم وكراهيتهم وذم أفعالهم .

(٢) العثى : الإفساد .

(٣) أى خلائف تخلف بعضها ويتلو بعضها بعضاً .

ومنهم منكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه ، فذلك استكمل خصال الخير ، ومنهم منكر للمنكر بلسانه وقلبه تارك له بيده ، فذلك خصلتين من خصال الخير تمسَّك بهما وضيَّع خصلة واحدة وهى أشرفها .

ومنهم منكر للمنكر بقلبه تارك له بيده ولسانه ، فذلك ضيَّع شرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة ، ومنهم تارك له بلسانه ويده وقلبه فذلك ميت الأحياء .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عَلامَ قاتلتَ طلحة والزبير؟

قال : قاتلتُهم على نَقْضهم بَيْعتى وقتلهم شيعتى من المؤمنين حكيم بن جبل العبدى من عبد القيس والسائحة والأساورة بلا حق استوجبوه منهما ، ولا كان ذلك لهما دون الإمام ، ولو أنهما فعلا ذلك بأبى بكر وعمر لقاتلاهما .

ولقد علم مَنْ هـهنا من أصحاب النبى ﷺ أن أبا بكر وعمر لم يرضيا ممن امتنع من بيعة أبى بكر حتى بايع وهو كاره ولم يكونوا بايعوه بعد الأنصار ، فما بالى وقد بايعانى طائعين غير مكرهين ، ولكنهما طمعا منى فى ولاية البصرة واليمن ، فلما لم أُولِّهما وجاءهما الذى غلب من حبهما الدنيا وحرصهما عليها خفْتُ أن يتخذا عباد الله خولاً (١) ومال المسلمين لأنفسهما ، فلما زويْتُ (٢) ذلك عنهما وذلك بعد أن جربتهما واحتججت عليهما .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أواجب هو ؟

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) أى يتخذوهم حشماً وعبيداً وغيرهم من الحاشية .

(٢) زويت : حجبت .

« إنما أهلك الله الأمم السالفة قبلكم بتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

يقول الله عز وجل ﴿ كَانُوا لاَ يتناهَوْن عن منكرٍ فعلُوه لَبئسَ ما كانُوا يفعلُونَ ﴾ (المائدة : ٧٩)

وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لخلقان من خلق الله ، فمن نصرهما نصره الله ، ومَنْ خذلهما خذله الله ، وما أعمال البر والجهاد فى سبيله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كبقعة فى بحر لُجىٍّ ، فمُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يُقرِّبان من أجل ، ولا يُنقِصان من رزق ، وأفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر .

وإن الأمر لينزل من السماء إلى الأرض كما ينزل قطر المطر إلى كل نفس بما قدر الله لها من زيادة أو نقصان فى نفس أو أهل أو مال ، فإذا أصاب أحدكم نقصاناً فى شىء من ذلك ورأى الآخر ذا يسار لا يكونن له فتنة ، فإن المرء المسلم البرىء من الخيانة لينتظر من الله إحدى الحُسْنيين :

إما من عند الله فهو خير واقع ، وإما من رزق من الله يأتيه عاجل ، فإذا هو ذو أهل ومال ومعه حسبه ودينه ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات حَرْثُ الدنيا ، والعمل الصالح حَرْثُ الآخرة ، وقد يجمعهما الله لأقوام .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبِرْنا عن أحاديث البدع .

قال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أحاديث ستظهر من بعدى حتى يقول قائلهم قال رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ ، كُلُّ ذلك افتراء علىّ ، والذى بعثنى بالحق لتفترقن أمتى على أهل دينها وجماعتها على ثنتين وسبعين فرقة ، كلها ضالة مضلة تدعو إلى النار .

فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله ، فإن فيه نبأ ما كان قبلكم ونبأ ما يأتى بعدكم ، والحكم فيه بيِّن مَنْ خالفه من الجبابرة قصمه الله ، ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله ، فهو حَبْلُ الله المتين ، ونوره المبين ، وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يعوج فيقام ، ولا يزيغ فيشعب ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلقه [1] كثرة الرد .

هو الذى سمعته الجن فلم تناه أن ولوا إلى قومهم منذرين قالوا : يَا قَوْمنَا ﴿ إنَّا سمعنَا قُرْآناً عَجَباً يَهدِى إلى الرُّشدِ ﴾ (الجن : ١)

مَنْ قال به صدق ، ومَنْ عمل به أُجِر ، ومَنْ تمسَّك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم .

فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة هل سألت عنها رسول الله ﷺ ؟

قال : نعم إنه لما نزلت هذه الآية من قول الله ﴿ الم * أَحَسِبَ النَاسُ أَنْ يُتركُوا أَنْ يقُولوا آمنَّا وهُمْ لاَ يُفتنُونَ ﴾ علمت أن الفتنة لا تنزل بنا ورسول الله ﷺ حيٌّ بين أظهرنا ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الفتنة التى أخبرك الله بها ؟ فقال : يا على إن أمتى سيُفتنون من بعدى . قلت : يا رسول الله أوليس قد قلت لى يوم أُحُد حيث استشهد من استشهد من المسلمين ، وحزنت على الشهادة ، فشقَّ ذلك علىَّ . فقلت لى : أبشر يا صديق فإن الشهادة من ورائك . فقال لى : فإن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذه ، وأهوى بيده إلى لحيتى ورأسى .

فقلت : بأبى وأمى يا رسول الله ، ليس ذلك من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر . فقال لى : أجل . ثم قال لى : يا على إنك باقٍ بعدى ومُبتلىً بأمتى ، ومخاصَمٌ يوم القيامة بين يدى الله فاعدد جواباً .

فقلت : بأبى أنت وأمى بيِّن لى ما هذه الفتنة التى يُبتلُونَ بها ؟ وعلام أجاهدهم بعدك ؟

---

(١) لا يخلقه : لا يبليه كثرة ترداده وقراءته .

فقال : إنك ستقاتل بعدى الناكثة والفاسقة والمارقة [١] وجلاَّهم وسماهم رجلاً رجلاً . ثم قال لى : وتجاهد أمتى على كل مَنْ خالف القرآن ممن يعمل فى الدين بالرأى ، ولا رأى فى الدين إنما هو أمر من الرب ونهيه .

فقلت : يا رسول الله فأرشدنى إلى الفلج [٢] عند الخصومة يوم القيامة .

فقال : نعم إذا كان ذلك فاقتصر على الهدى إذا قومك عطفوا الهدى على الهوى وعطفوا القرآن على الرأى فتأولوه برأيهم ، تتبع الحجج من القرآن بمشتبهات الأشياء الكاذبة عند الطمأنينة إلى الدنيا والتهالك والتكاثر ، فاعطف أنت الرأى على القرآن إذا قومك حرَّفوا الكلم عن مواضعه عند الأهواء الساهية والأمر الصالح والهرج الآثم ، والقادة الناكثة والفرقة القاسطة والأخرى المارقة ، أهل الإفك المردى والهوى المطغى والشبهة الحالقة .

ولاَ تتكلنَّ على فضل العاقبة ، فإن العاقبة للمتقين ، وإياك يا على أن يكون خصمك أولى بالعدل والإحسان والتواضع لله والاقتداء بسنتى والعمل بالقرآن منك ، فإن مَنْ فلج الرب على العبد يوم القيامة أن يخالف فرض الله أو سنة سنَّها نبى أو يعدل عن الحق ويعمل بالباطل ، فعند ذلك يملى لهم فيزدادوا إثماً ، يقول الله ﴿ إنمَّا نُملِى لهُمْ ليزدَادُوا إثْماً ﴾ ، فلا يكونن الشاهدون بالحق والقوَّامون بالقسط عندك كغيرهم .

ياعلى إن القوم سيُفتنون ويفتخرون بأحسابهم وأموالهم ويُزكُّون أنفسهم ، ويَمنُّون دينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون عقابه ، ويستحلون حرامه بالمشتبهات الكاذبة ، فيستحلون الخمر بالنبيذ والسحت بالهدية ، والربا بالبيع ، ويمنعون الزكاة ، ويطلبون البر ، ويتخذون فيما بين

---

(١) المقصود بهم الخوارج الذين وُصِفوا أنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة .

(٢) الفلج : الفوز وظهور حُجَّته .

ذلك أشياء من الفسق لا تُوصَفُ صفتها ، ويلى أمرهم السفهاء ، ويكثر تتبعهم على الجور والخطأ ، فيصير الحق عندهم باطلاً والباطل حقاً ، ويتعاونون عليه ويرمونه بألسنتهم ، ويعيبون العلماء ويتخذونهم سخرياً .

قلت : يا رسول الله فبأية المنازل هم إذا فعلوا ذلك ؟ بمنزلة فتنة أو بمنزلة ردة ؟

قال : بمنزلة فتنة ينقذهم الله بنا أهل البيت ، عند ظهورنا السعداء من أولى الألباب إلا أن يَدَعُوا الصلاة ويستحلوا الحرام فى حرم الله ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر .

يا على بنا فتح الله الإسلام وبنا يختمه ، بنا أهلك الأوثان ومَنْ يعبدها ، وبنا يقصم كل جبار وكل منافق ، حتى إنا لنقتل فى الحق مثل مَنْ قتل فى الباطل .

يا على إنما مَثَلُ هذه الأمة مثل حديقة أطعم منها فوجاً عاماً ، فلعل آخرها فوجاً أن يكون أثبتها أصلاً ، وأحسنها فرعاً ، وأحلاها جنىً ، وأكثرها خيراً ، وأوسعها عدلاً ، وأطولها مُلْكاً .

يا على كيف يهلك الله أمة أنا أولها ، ومَهْدينا أوسطها ، والمسيح بن مريم آخرها .

يا على إنما مثَلُ هذه الأمة كمثل الغيث لا يُدرى أوله خير أم آخره ، وبين ذلك نهج أعوج لست منه وليس منى .

يا على وفى تلك الأمة يكون الغلول والخيلاء وأنواع المُثْلات [1] ، ثم تعود هذه الأمة إلى ما كان عليه خيار أوائلها ، فذلك من بعد حاجة الرجل إلى قوة امرأته – يعنى عزلها – حتى إن أهل البيت ليذبحون الشاة فيقنعون منها برأسها ، ويواسون ببقيتها من الرأفة والرحمة بينهم » [2].

(١) المثلات : العقوبات والعبر .

(٢) منتخب كنز العمال – المتقى الهندى (٦ / ٣١٥ – ٣٢٠) وعزاه لوكيع .

(١٩)

وقد خطب رضى الله عنه فى الناس فقال :

أيها الناس إنكم والله لو حَنَنتُم حنين الوَلَه [١] العجال ، ودعوتم دعاء الحمام ، وجأرتم جؤار [٢] مُتبتِّلى [٣] الرُّهبان ، ثم خرجتم إلى الله من الأموال والأولاد التماس القربة إليه فى ارتفاع درجة عنده ، أو غفران سيئة أحصاها كَتبتُه ، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من جزيل ثوابه .

وأتخوف عليكم من أليم عقابه ، فبالله بالله بالله ، لو سالت عيونكم رهبة منه ، ورغبة إليه ، ثم عمرتم فى الدنيا ـ ما الدنيا باقية ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم لأنعمه العظام عليكم ، بهدايته إياكم للإسلام .

ما كنتم تستحقون به ـ الدهر ما الدهر قائم بأعمالكم ـ جنته ، ولكن برحمته تُرحمون ، وإلى جنته يصير منكم المقسطون ، جعلنا الله وإياكم من التائبين العابدين »[٤] .

* * *

(١) الوَلَه : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف .

(٢) الجؤار : رفع الصوت بالدعاء مع تضرع واستغاثة .

(٣) التبتل : الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى بالعبادة والطاعة .

(٤) حلية الأولياء (١ / ٧٧) .

حديث عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما

عن سويد بن غفلة قال : مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ ينتقصونهما ، فأتيت علياً ـ رضى الله عنه ـ فذكرت له ذلك ، فقال : لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل ، أخوا رسول الله ﷺ ووزيراه ، ثم صعد المنبر فخطب خطبة بليغة فقال :

« ما بال أقوام يذكرون سيِّدَىْ قريش وأبوى المسلمين ، بما أنا عنه مُتنزِّهٌ ، ومما يقولون برىء ، وعلى ما يقولون مُعاقِب ؟

والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لا يحبهما إلا مؤمن تقى ، ولا يبغضهما إلا فاجر ردىء ، صحبا رسول الله ﷺ بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ويعاقبان ، فما يجاوزان فيما يصنعان رأى رسول الله ﷺ ، ولا يرى رسول الله ﷺ كرأيهما رأياً ، ولا يحب حبهما حباً .

مضى رسول الله ﷺ وهو عنهما راض والناس راضون ، ثم ولى أبو بكر الصلاة ، فلما قبض الله نبيه ﷺ ولَّاه المسلمون ذلك وفوَّضوا إليه الزكاة لأنهما مقرونتان . وكنت أول من يسمى له من بنى عبد المطلب وهو لذلك كاره ، يود أن بعضنا كفاه ، فكان والله خير من بقى أرأفه رأفة ، وأرحمه رحمة ، وأكيسه ورعاً ، وأقدمه إسلاماً .

شبَّهه رسول الله ﷺ بميكائيل رأفة ورحمة ، وبإبراهيم عفواً ووقاراً ، فسار بسيرة رسول الله ﷺ حتى قُبِض رحمة الله عليه .

ثم ولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب واستأمر الناس فى ذلك ، فمنهم مَنْ رضى ومنهم مَنْ كره ، فكنتُ ممن رضى ، فوالله ما فارق عمر الدنيا حتى رضى مَنْ كان له كارهاً ، فأقام الأمر على منهاج النبى ﷺ وصاحبه

، يتبع آثارهما كما يتبع الفصيل [1] أثر أمه .

وكان والله خير مَنْ بقى رفيقاً رحيماً ، وناصر المظلوم على الظالم ، ثم ضرب الله بالحق على لسانه حتى رأينا أن ملَكاً ينطق على لسانه ، وأعزَّ الله بإسلامه الإسلام ، وجعل هجرته للدين قواماً ، وقذف فى قلوب المؤمنين الحب له وفى قلوب المنافقين الرهبة له .

شبَّهه رسول الله ﷺ بجبريل فظاً غليظاً على الأعداء ، وبنوح حنقاً ومغتاظاً على الكافرين .

فَمَنْ لكم بمثلهما ؟ لا يُبلَغُ مبلغهما إلا بالحب لهما واتباع آثارهما ، فمن أحبهما فقد أحبنى ، ومَنْ أبغضهما فقد أبغضنى ، وأنا منه برىء ، ولو كنت تقدمت فى أمرهما لعاقبت أشد العقوبة ، فمن أتيت به بعد مقامى هذا فعليه ما على المفترى .

ألا وخير هذه بعد نبيها أبو بكر وعمر ، ثم الله أعلم بالخير أين هو .

أقول قولى هذا ويغفر الله لى ولكم » [2] .

* * *

---

(١) الفصيل : ولد الناقة إذا فُصِلَ عن أمه .

(٢) منتخب كنز العمال (٤ / ٤٤٦) ، وحياة الصحابة (٢ / ٤٥٣) .

(٢١)

حملته على القاعدين عن الجهاد

أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، زمان على بن أبى طالب ، فخرج على بن أبى طالب حتى جلس على باب السدة ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال :

أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذُّلِّ ، وشمله البلاء ، ولزمه الصَّغار [١] ، وسيمَ [٢] الخسف ، ومُنِع النَّصَف [٣] .

ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فو الله ما غُزِىَ قوم قط فى عُقْر دارهم إلا ذلُّوا فتواكلتم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى واتخذتموه وراءكم ظهرياً ، حتى شُنَّتْ عليكم الغارات .

هذا أخو غامد قد وردت خَيْله الأنبار ، وقتل حسان ـ أو ابن حسان ـ البكرى ، وأزال خيلكم عن مسالحها [٤] ، وقتل منكم رجالاً صالحين .

ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينزع حجْلها وقُلْبها ورعاثها [٥] ثم انصرفوا وافرين ، ما كُلِم [٦] رجل منهم كَلْماً ، فلو أن امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان عندى به

(١) الصَّغار : الذل .

(٢) السَّوْم : أن تُجشِّم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً .

(٣) النصف : الإنصاف وإعطاء الحق والعدل .

(٤) المسالح : الثغور ، أو بالمعنى الحديث : النقاط الحدودية التى تقوم بحراسة حدود البلاد ، وقد تطلق على الجنود القائمين بالحراسة والمراقبة على الحدود .

(٥) الحجل : الخلخال . القُلْب : سِوارُ المرأة وهو الأسْوِرة . الرعاث : هو ما عُلِّق بالأذن من قرط وغيره وهو « الحلق » .

(٦) ما كُلِم رجل منهم : ما جُرِح منهم جرحاً واحداً .

ملوماً ، بل كان به عندى جديراً .

فيا عجباً من جدٍّ هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، فقبحاً لكم وتَرَحاً (١) ، حين صرتم هدفاً يُرْمَى ، وفيئاً (٢) يُنتهب ، يُغَار عليكم ولا تغيرون ، وتُغْزَوْن ولا تَغْزون ، ويُعصى الله وترضون .

فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : حَمَّارَة القيظ (٣) ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القُرُّ (٤) ، كل ذا فراراً من الحَرِّ والقَرِّ .

فإذا كنتم من الحَرِّ والقر تفرُّون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام (٥) الأطفال وعقول ربات الحجال .

وددت أن الله قد أخرجنى من بين ظهرانيكم ، وقبضنى إلى رحمته من بينكم ، والله لوددت أنى لم أراكم ولم أعرفكم ، معرفة والله جرَّتْ ندماً ، قد وَرَيْتُم (٦) صدرى غيظاً ، وجرَّعتمونى الموت أنفاساً (٧) وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : ابن أبى طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب .

لله أبوهم ، وهل منهم أحد أشد لها مراساً أو أطول لها تجربة منى ؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين ، فها أنذا قد نيَّفْتُ (٨) على الستين ولكن لا رأى لمن لا يُطاع » (٩) .

---

(١) الترح : الحزن ، والهلاك والانقطاع أيضاً .

(٢) الفيء : الغنيمة ، وهو ما حصل للغازى من أموال أهل البلد المغزوة من غير حرب ولا جهاد .

(٣) حمَّارة القيظ : شدة الحر .

(٤) القر : البرد وشدته .

(٥) الأحلام : العقول .

(٦) وريتم : هنا بمعنى أنهم قد ملأوا صدره غيظاً منهم ومن أفعالهم فأوغروا صدره عليهم ، وأصله من ورى الزناد : إذا خرجت ناره .

(٧) أنفاساً : أى جرعة بعد جرعة ، وذلك أشد إيلاماً من أن يتجرع الموت مرة واحدة

(٨) نيَّفت : قاربت وأشرفت .

(٩) البيان والتبيين (٢ / ٥٣) ، والكامل للمبرد (ص ١٣) طبعة ١٢٨٦ هـ =

(٢٢)

سخريته من المتخاذلين الناقضين لعهودهم

وقد قام فيهم خطيباً فى مقام آخر فقال :

« أيها الناس المجتمعة أبدانكم ، المختلفة أهواؤكم ، كلامكم يوهى الصُّمَّ الصِّلاب ، وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم . تقولون فى المجالس كيت وكيت ، فإذا جاء القتال قلتم حِيدى حِيادِ [١] .

ما عزَّتْ دعوة مَنْ دعاكم ، ولا استراح قلب مَنْ قاساكم ، أعاليل بأضاليل . سألتمونى التأخير دفاع ذى الدين المطول ، هيهات لا يمنع الضَّيم الذليل ، ولا يُدركُ الحق إلا بالجدِّ .

أىّ دار بعد داركم تمنعون ؟ أم مع أىِّ إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله مَنْ غررتموه ، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخْيَب .

أصبحت والله لا أُصدِّق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، فرَّق الله بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم مَنْ هو خير لى منكم ، لوددت أن لى بكل عشرة منكم رجلاً من بنى فراس بن غنم ، صرف الدينار بالدرهم » .

* * *

= ، والأخبار الطوال للدينورى (ص ٢١٢) ، وعيون الأخبار لابن قتيبة (٢ / ٢٣٦) .

(١) حيدى حياد أى ميلى . أى خذوا جانباً حتى لا تؤمروا بالقتال .

(٢٣)

خطبته بعد مقتل عثمان رضى الله عنه

« أيها الناس ، كتابَ الله وسنة نبيكم ، لا يدعى مدعٍ إلا على نفسه . شغل من الجنة والنار أمامه ، ساعٍ نجا ، وطالب يرجو ، ومقصِّر فى النار : ثلاثة . واثنان : مَلَكٌ طار بجناحيه ، ونبى أخذ الله بيديه ، لا سادس .

هلك من اقتحم ، وردى من هوى ، اليمين والشمال مضلَّة ، والوسطى الجادة ، منهج عليه باقى الكتاب وآثار النبوة .

إن الله أدَّب هذه الأمة بأدبين : السَّوط والسيف ، فلا هوادة فيهما عند الإمام ، فاستتروا ببيوتكم وأصلحوا ذات بينكم ، والتوبة من ورائكم ، من أبدى صفحته للحق هلك .

قد كانت أمور ملتُم علىَّ فيها ميلة لم تكونوا عندى محمودين ولا مصيبين ، والله أنْ لو أشاء أن أقول لقلت .

عفا الله عما سلف ، انظروا فإن أنكرتم فانكروا ، وإن عرفتم فاروووا ، حق وباطل ، ولكلٍّ أهلٌ ، والله لئن أُمِّر الباطل لقديماً فعل ، ولئن أُمِّر الحق لَرُبَّ ولعلَّ ، ما أدبر شىء فاقبل » (١)

* * *

---

(١) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ـ (٢ / ٢٣٦) ، والبيان والتبيين للجاحظ (٢ / ٥٠) .

أبغض خلق الله إلى الله

قال على بن أبى طالب « ذمتى رهينة وأنا به زعيم لمن صرحت له العبَر ، ألاَّ يهلك على التقوى زرع قوم ، ولا يظمأ على التقوى سِنْخ [١] أصل .

ألا وإن أبغض خلق الله إلى الله رجل قمش [٢] جهلاً ، غاراً بأغباش [٣] الفتنة ، عمياً بما فى عقد الهدنة ، سماه أشباهه من الناس عالماً ولم يغن فى العلم يوماً سالماً .

بكَّر فاستكثر ، ما َقلَّ منه فهو خير مما كَثُر حتى إذا ما ارتوى من آجـن [٤] واكتنز من غير طائل قعد بين الناس قاضياً لتخليص ما التبس على غيره .

إن نزلت به إحدى المبهمات هيَّأ حشواً رثَّاً من رأيه ، فهو من قطع الشبهات فى مثل غزل العنكبوت ، لا يعلم إذا أخطأ ، لأنه لا يعلم أأخطأ أم أصاب .

خبَّاط عَشَوات ، ركاب جهالات ، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم ، ولا يعضُّ فى العلم بضرس قاطع . يذرو الرواية ذَرْو الريح الهشيمَ [٥] تبكى منه الدماء وتصرخ منه المواريث ، ويستحل بقضائه الفرج الحرام ، لا مليءً والله بإصدار ما ورد عليه ولا أهلٌ لما قُرِّظ [٦] به » [٧] .

(١) سنخ كل شىء : أصله .
(٢) الرجل القمش : الردىء السيء الخلق . والقمش : الردىء من كل شىء .
(٣) الغبش : شدة ظلمة الليل . فالفتنة ظلمة بل ظلمات شديدة يتخبط فيها من يخوض فى الفتنة .
(٤) الآجن : هو الماء المتغير الطعم واللون .
(٥) الهشيم : ما جَفَّ من النبات وتكسَّر وتحطم ، فذرته الريح أى نثرته فى الهواء .
(٦) التقريظ : مدح الإنسان فى حال حياته .
(٧) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م ـ (١ / ٦٠ ، ٦١) .

تقريعه للقاعدين عن الجهاد

وقد خطب ـ رضى الله عنه ـ فى الناس وهو أول كلام قال لهم بعد النهر :

« أيها الناس ، استعدوا للمسير إلى عدو فى جهاده القربة إلى الله ، ودَرْك الوسيلة عنده ، حيارى فى الحق ، جفاة عن الكتاب ، نُكب [١] عن الدين ، يعمهون [٢] فى الطغيان ، ويعكسون فى غمرة الضلال ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً ، وكفى بالله نصيراً .

قال : فلا هم نفروا ولا تيسروا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذى ينظرهم ، فمنهم المعتل ومنهم المكره ، وأقلهم مَنْ نشط ، فقام فيهم خطيباً فقال :

« عباد الله ، ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثَّاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ وبالذل والهوان من العز ؟ أو كلما ندبتُكم [٣] إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة ، وكأن قلوبكم مألوسة ، فأنتم لا تعقلون ، وكأن أبصاركم كمه [٤] فأنتم لا تبصرون .

لله أنتم ما أنتم إلا أسود الشرى [٥] فى الدعة [٦] ، وثعالب روَّاغة حين

---

(١) نكب عن الشىء : عدل عنه وحاد عن الطريق المستقيم فيه .
(٢) يعمهون : يتحيرون لا يهتدون لطريق الحق أو مذهبه .
(٣) ندبتكم : دعوتكم .
(٤) الكمه : العمى الذى يولد به الإنسان .
(٥) الشرى : موضع تنسب إليه الأُسْد ، يقال للشجعان ، وهو تعبير يقال هنا للتهكم عليهم .
(٦) الدعة : الراحة والاسترخاء .

تُدْعَوْن إلى البأس ، ما أنتم لى بثقة سجيس [1] الليالى ، ما أنتم بركْبٍ يُصَال بكم ولا ذى عزٍّ يعتصم إليه .

لعمرُ الله ، لبئس حشاش [2] الحرب أنتم ، إنكم تُكَادُون ولا تكيدون ، وتُنتقَصُ أطرافكم ولا تتحاشون ، ولا يُنَامُ عنكم وأنتم فى غفلة ساهون ، إن أخا الحرب اليقظان ذو عقل ، وباتٌّ [3] لذل مَنْ وادع [4] ، وغلب المتجادلون ، والمغلوب مقهور ومسلوب .

ثم قال : أما بعد ، فإن لى عليكم حقاً ، وإن لكم علىَّ حقاً ، فأما حقُّكم علىَّ فالنصيحة لكم ما صحبتكم ، وتوفير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيما لا تجهلوا ، وتأديبكم كى تعلموا ، وأما حقى عليكم فالوفاء بالبيعة والنصح لى فى الغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم ، فإن يُرِد الله بكم خيراً انتزعوا عما أكره ، وتراجعوا إلى ما أحب تنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملـون » [5] .

* * *

(٢٦)

الاستعداد للجهاد بالذكر والتوجه إلى الله

وقام فى الناس خطيباً فقال :

« الحمد لله الذى لا يُبرَمُ ما نقض ، وما أُبرِمَ لا ينقضه الناقضون ، لو شاء ما اختلف اثنان من خَلْقه ، ولا تنازعت الأمة فى شىء من أمره ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار فلفت

(١) سجيس الليالى : أبد الدهر . أى لا أثق فيكم أبداً .

(٢) حش الحرب إذا أشعلها وهيَّجها .

(٣) باتٌّ : قاطع .

(٤) وادع : سالم وركن للراحة والدعة .

(٥) تاريخ الطبرى (٤ / ٩٠ ، ٩١) ، وحياة الصحابة (١ / ٤٣٠ ـ ٤٣٢) .

بيننا فى هذا المكان .

فنحن بربنا بمرأى ومسمع ، فلو شاء عَجَّل النقمة وكان منه التغيير حتى يكذب الله الظالم ، ويعلم الحق أين مصيره ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده هى دار القرار .

﴿ لِيجزِىَ الذينَ أسَاؤا بمَا عَمِلُوا ويجزى الذينَ أحْسَنُوا بالحُسْنى ﴾
(النجم : ٣١)

ألا إنكم لاقوا القوم غداً ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، وسلوا الله عز وجل النصر و الصبر ، والقوهم بالجدِّ والحزم ، وكونوا صادقين »[١] .

* * *

(٢٧)

أول خطبة جمعة خطبها بالكوفة

إن أول جمعة صلى على بن أبى طالب بالكوفة خطب فقال :

« الحمد لله أحمده ، وأستعينه وأستهديه ، وأومن به وأتوكل عليه ، وأعوذ بالله من الضلالة والرَّدَى [٢] ، مَنْ يهد الله فلا مُضلَّ له ، ومَنْ يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده ورسوله ، انتخبه لرسالته ، واختصه لتبليغ أمره ، أكرم خلقه عليه ، وأحبهم إليه ، فبلَّغ رسالة ربه ، ونصح لأمته ، وأدَّى الذى عليه ﷺ .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله ، وأقربه لرضوان الله ، وأفضله فى عواقب الأمور عند الله ، وبتقوى

(١) حياة الصحابة (١ / ٤٢٩) .

(٢) الردى : الهلاك .

الله أُمرتم ، وللإحسان خُلِقْتم ، فاحذروا من الله ماحذركم من نفسه ، فإنه حذَّر بأساً شديداً .

واخشوا الله خشية ليست بتعذير (١) ، واعملوا من غير رياء ولا سمعة ، فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل ، ومن عمل مخلصاً له تولاه الله ، وأعطاه أفضل نيته .

وأشْفقوا من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترك شيئاً من أمركم سُدى .

قد سَمَّى آثاركم ، وعَلِمَ أسراركم ، وأحصى أعمالكم ، وكتب آجالكم ، فلا تغرنكم الدنيا ، فإنها غَرَّارة (٢) لأهلها ، والمغرور مَنْ اغتر بها ، وإلى فناء ما هى ، وإنَّ الآخرة هى دار القرار (٣) ، نسأل الله منازل الشهداء ومرافقة الأنبياء ، ومعيشة السعداء ، فإنما نحن به وله » (٤) .

* * *

(٢٨)

أبناء الآخرة

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

« إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مُقْبلة ، ولكل واحد منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

---

(١) التعذير : التقصير .

(٢) أى خادعة لأهلها .

(٣) أى أن الآخرة هى دار الاستقرار التى يستقر فيها المؤمنون المتقون الذين صدقوا الله ورسوله .

(٤) الأخبار الطوال - أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى (ت ٢٨٢ هـ) - تحقيق عبد المنعم عامر - عيسى البابى الحلبى - الطبعة الأولى ١٩٦٠ م .

ألا إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً ، والتراب فراشاً ، والماء طيباً ، ألا من اشتاق إلى الجنة سلا [1] عن الشهوات ، ومَنْ أشفق من النار رجع عن الحرمات ، ومَنْ زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات .

ألا إن لله عباداً كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلَّدين وأهل النار فى النار مُعذَّبين ، شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياماً قليلة لِعُقْبى [2] راحة طويلة .

أما بالليل فصافّو [3] أقدامهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى الله : ربنا ربنا يطلبون فكاك رقابهم .

وأما بالنهار فحلماء علماء بررة أتقياء كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيقول : مَرْضى ، وما بالقوم من مرض ، ويقول : خولطوا ، ولقد خالط القوم أمر عظيـم » [4] .

* * *

---

(١) سلا عن الشهوات : نسيها وذهل عنها .

(٢) العُقْبى : العاقبة وجزاء الأمر ونتيجته .

(٣) أى قد قاموا بالليل يصلون وقد صَفُّوا أقدامهم بجانب بعضها فى الصف فى الصلاة .

(٤) عيون الأخبار ـ ابن قتيبة (٢ / ٣٥٣) .

(٢٩)

وصيته الجامعة لكُميل

عن كُميل النَّخْعى قال : أخذ بيدى علىٍ بن أبى طالب ، فخرج بى إلى ناحية الجبانة ، فلما أصحر [١] تنفس الصُعداء ثم قال :

« يا كميل ، إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، فاحفظ عنى ما أقول لك :

الناس ثلاثة : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يميلون ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركين وثيق .

يا كميل ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله .

يا كميل ، محبة العلم دين يُدَان به ، يكسب الإنسان الطاعة فى حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه .

يا كميل ، مات خُزَّان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ، ها إن هاهنا لعلماً جماً ــ وأشار بيده إلى صدره ــ لو وجدت له حملة ، بلى أجد لَقناً [٢] غير مأمون ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، ويستظهر بنعم الله على عباده ، وبحججه على أوليائه ، أو منقاداً لحملة الحق ولا بصيرة له فى أحنائه [٣] .

(١) أصحر : خرج إلى الصحراء .

(٢) اللقن : سريع الفهم والفطنة ، ولكنه غير مأمون أى غير ثقة .

(٣) أحنائه : جوانبه . فهو ينقاد لأهل الحق لا فهماً للحق وإيماناً به ولكن هو التقليد فحسب ، فهو لا يحمل بين جوانب نفسه بصيرة يميز بها بين الحق والباطل . .

ينقدح [1] الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أو منهوماً باللذة سلس [2] القياد للشهوة ، أو مُغرماً بالجمع والادخار ، ليسا من رعاة الدين فى شىء ، أقربُ شبهاً بهما الأنعامُ السَّائمة[3] .

كذلك يموت العلم بموت حامليه ، اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ، إما ظاهراً مشهوراً ، وإما خائفاً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله وبيِّناته .

وكم ذا وأين ؟ أولئك والله الأقلُّون عدداً ، والأعظمون عند الله قدراً ، بهم يحفظ الله حججه وبيِّناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم .

هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استخشن المترفون ، وأنسُوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلَّقة بالرفيق الأعلى .

يا كميل ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة إلى دينه ، آه آه شوقاً إليهم . انصرف يا كميل إذا شئت [4] .

* * *

(١) أى يؤثر الشك فى صدره عند ورود أى شبهة إليه ، ذلك لأن الإيمان واليقين لم يتمكن فى قلبه .

(٢) سلس القياد : سهل الانقياد .

(٣) الأنعام السائمة : الماشية والأغنام التى ترعى حيث شاءت . والمقصود هنا أنه ليس له انقياد للحق ، بل هو منقاد لشهواته ونزواته حيثما كانت ، وقد يقلد أهل الحق فى شىء ثم ينكص على عقبيه فينقاد بسهولة لأهل الباطل .

(٤) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الأندلسى ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م ـ (٢ / ٢١٢ ـ ٢١٣) .

(٣٠)

من كلامه عليه السلام في آداب الحكماء والعلماء

« مَنْ حلم ساد ، ومَنْ ساد استفاد ، ومن استحيا حُرِم ، ومَنْ هاب خاب ، ومَنْ طلب الرئاسة صبر على السياسة ، ومَنْ أبصر عَيْبَ نفسه عمى عن عيب غيره ، ومَنْ سلَّ سيف البغى قُتِلَ به .

ومن احتفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن نسى زَلَّته استعظم زلة غيره ، ومن هتك حجاب غيره انهتكت عورات بيته ، ومَنْ كابر فى الأمور عطب ، ومَنْ اقتحم اللجج [1] غرق .

ومن أُعجب برأيه ضلَّ ، ومَنْ استغنى بعقله زلَّ ، ومن تجبَّر على الناس ذلَّ ، ومن تعمَّق فى العمل مَلَّ ، ومن صاحب الأنذال حُقِّر ، ومَنْ جالس العلماء وُقِّر ، ومَنْ دخل مداخل السوء اتُّهِم .

ومَنْ حَسُن خلقه سَهُلت له طرقه ، ومَنْ حسَّن كلامه كانت الهيبة أمامه ، ومَنْ خشى الله فاز ، ومَنْ استقاد الجهل ترك طريق العدل ، ومن عرف أجله قصَّر أمله .

ثم أنشأ يقول :

البسْ أخاك على عيوبـه ... واسْتُر وغَـطِّ علـى ذنوبـه

واصبر على بهْت السَّفيه ... وللـزمـان علـى خطـوبه

ودَعِ الجـوابَ تفضُّـلاً ... وكِلِ الظَّلومَ إلى حَسِيبه » [2] .

---

(١) اللُّجَج : جمع لُجَّة . ومنه لجة البحر : الماء الكثير الذى لا يُرى طرفاه . فمن يدخل فى غمرة هذا الماء الكثيف يغرق . وكذا من دخل فى لجج الأمور فى اختلاطها بشبهاتها وتفريعاتها يغرق فيها فلا يهتدى الحق منها .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢ / ٤٢٠ ـ ٤٢١) .

(٣١)

تذكير بالموت

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أوصيكم عبادَ الله ونفسى بتقوى الله ولزوم طاعته ، وتقديم العمل ، وترك الأمل ، فإنه مَنْ فرط فى عمله لم ينتفع بشىء من أمله .

أين التعب بالليل والنهار ، والمقتحم للجج البحار ، ومفاوز القفار [١] ؟ يسير من وراء الجبال وعالج [٢] الرمال ، يصل الغُدُوَّ بالرَّواح ، والمساء بالصباح فى طلب مُحقرات الأرباح ، هجمتْ عليه منيته ، فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ما جمع بوراً ، وما اكتسب غروراً ، ووافى القيامة محسُوراً [٣] .

أيها اللاهى الغَارُّ [٤] نفسه ، كأنى بك وقد أتاك رسول ربك [٥] ، لا يقرع لك باباً ، ولا يهاب لك حجاباً ، ولا يقبل منك بديلاً ، ولا يأخذ منك كفيلاً ، ولا يرحم لك صغيراً ، ولا يُوقِّر فيك كبيراً ، حتى يؤديك إلى قَعْر مُظلمة ، أرجاؤها موحشة ، كفعْله بالأمم الخالية ، والقرون الماضية .

أين مَنْ سعى واجتهد ، وجمع وعدَّد ، وبنى وشيَّد ، وزخرف ونجَّد [٦] ، وبالقليل لم يقنع ، وبالكثير لم يُمتَّع ؟ !!

---

(١) المفاوز : الصحارى القفار المهلكة ، وقد سميت الصحراء مفازة لأن من دخلها وخرج منها سالماً فقد فاز ، والقفار : جمع قَفْرة ، وهى الأرض التى ليس بها نبات ولا ماء .

(٢) عالج الرمال : هو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض .

(٣) محسوراً : نادماً أشد الندم على ما قدَّم واقترف من الذنوب وترك من الطاعات .

(٤) الذى يغر نفسه ويخدعها بجهله .

(٥) يقصد ملك الموت .

(٦) التنجيد : هو تزيين البيوت بالفرش والوسائد والبسط وأنواع الزينة المختلفة .

أين مَنْ قاد الجنود ونشر البنود [1] ؟ !!

أضحَوْا رفاتاً ، تحت الثرى أمواتاً ، وأنتم بكأسهم شاربون ، ولسبيلهم سالكون .

عبادَ الله ، فاتقوا الله وراقبوه ، واعملوا لليوم الذى تُسيَّر فيه الجبال ، وتشَقَّقُ السماء بالغمام ، وتطَايَرُ الكتب عن الأيمان والشمائل .

فأىُّ رجل يومئذ تراك ؟ !!

أقائل : هاؤم اقرأوا كتابيه ، أم : يا ليتنى لم أُوتَ كتابيه ؟

نسأل مَنْ وعدنا بإقامة الشرائع جنتَه أن يقينا سخطه ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

* * *

(٣٢)

تقوى الله

وقال فى خطبة أخرى :

« الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه ، واستوجبه على جميع خَلْقه ، الذى ناصية كل شىء بيده ، ومصير كل شىء إليه ، القوى فى سلطانه ، اللطيف فى جبروته ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، خالق الخلائق بقدرته ، ومُسخِّرهم بمشيئته ، وَفِيِّ العهد ، صادق الوعد ، شديد العقاب ، جزيل الثواب .

(١) البنود فى اللغة : الأعلام الكبيرة ، ويكون تحت كل بند (علَم) ما يقرب من عشرة آلاف رجل أو أكثر .

أحمده وأستعينه على ما أنعم به ، مما لا يعرف كُنْهَهُ غيره ، وأتوكلُ عليه توكل المستسلم لقدرته ، المتبرى من الحول والقوة إلا إليه ، وأشهد شهادة لا يشوبها شك أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، إلهاً واحداً صمداً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له وليٌّ من الذُّلِّ وكبِّره تكبيراً ، وهو على كل شىء قدير ، قطع ادعاء المدَّعى بقوله عز وجل ﴿وَمَا خلقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلاَّ ليعبدونِ﴾ .

وأشهد أن محمداً ﷺ صفوته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بالمعروف آمراً ، وعن المنكر ناهياً ، وإلى الحق داعياً ، على حين فَتْرة [1] من الرسل ، وضلالة من الناس ، واختلاف من الأمور ، وتنازع من الألسن ، حتى تَمَّ به الوحى ، وأنذر به أهل الأرض .

أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ، فإنها العصْمة من كل ضلال ، والسبيل إلى كل نجاة ، فكأنكم بالجثث قد زايلتها [2] أرواحها ، وتضمنتها أجداثها [3] ، فلن يستقبل مُعمَّر منكم يوماً من عمره إلا بانتقاص آخر من أجله ، وإنما دنياكم كفىء الظل ، أو زاد الرَّكبْ .

وأحذركم دعاء العزيز الجبار عبده ، يوم تُعفَّى آثاره ، وتوحش منه دياره ، ويُوتَم صغاره ، ثم يصير إلى حَفير من الأرض ، مُتعفِّراً خدُّه ، غير مُوسَّد ولا ممهَّد .

أسأل الذى وعدنا على طاعته جنته أن يقينا سخطه ، ويُجنِّبنا نِقْمته ، ويهب لنا رحمته ، إن أبلغ الحديث كتاب الله » [4] .

* * *

(١) الفترة : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة .

(٢) زايلتها أرواحها : فارقتها .

(٣) أجداثها : قبورها .

(٤) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه (٤ / ٦٨ ، ٦٩) .

(٣٣)

بداية الفتنة

وقد استنفر أهلَ الكوفة لحرب الجمل ، فأقبلوا إليه مع ابنه الحسن ، فقام فيهم خطيباً فقال :

« الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين .

أما بعد ، فإن الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام إلى الثَّقَلين (١) كافَّة ، والناس فى اختلاف ، والعرب بِشرِّ المنازل ، مستضعفون لما بهم ، بعضهم على بعض ، فرأب (٢) الله به الثَّأى (٣) ، ولأم (٤) به الصدع ، ورتق (٥) به الفتق ، وأمَّنَ به السبل ، وحقن به الدماء ، وقطع به العداوة الواغرة (٦) للقلوب ، والضغائن المخشِّنة للصدور .

ثم قبضه الله عز وجل مشكوراً سعيُه ، مَرْضياً عملُه ، مغفوراً ذنبه ، كريماً عند ربه ، فيا لها من مصيبة عَمَّتْ المسلمين ، وخصَّت الأقربين ، وولى أبو بكر فسار بسيرة رضيها المسلمون .

ثم ولى عمر ، فسار بسيرة أبى بكر رضى الله عنهما ، ثم ولى عثمان ، فنال منكم ونِلْتم منه ، حتى إذا كان من أمره ما كان أتيتموه فقتلتموه .

---

(١) هم الإنس والجن ، سُمِّيا ثقلين لتفضيل الله تعالى إياهما على سائر الحيوان المخلوق فى الأرض بالتمييز والعقل ، ولأنهما كالثقل للأرض وعليها .

(٢) رأب : أصلح .

(٣) الثأى : الفساد .

(٤) لأم الشيء : أصلحه وجمع أطرافه .

(٥) الرتق : إلحام الفتق وإصلاحه .

(٦) الواغرة التى توغر الصدر ، أى توقد القيظ فى الصدر وتملأه غيظاً وحقداً .

ثم أتيتموني فقلتم لي : بايعنا ، فقلت لكم : لا أفعل ، وقبضت يدي فبسطتموها ، ونازعتم كَفِّي فجذبتموها ، وقلتم : لا نرضى إلا بك ، ولا نجتمع إلا عليك ، وتداككتم [1] عليَّ تداكك الإبل الهيم [2] على حياضها يوم وِرْدها [3] ، حتى ظننت أنكم قاتلي ، وأن بعضكم قاتل بعض ، فبايعتموني .

وبايعني طلحة والزبير ، ثم ما لبثا أن استأذناني للعمرة ، فسارا إلى البصرة ، فقتلا بها المسلمين ، وفعلا الأفاعيل ، وهما يعلمان والله أني لست بدون واحد ممن مضى ، ولو أشاء أن أقول لقلت :

اللهم إنهما قطعا قرابتي ، ونكثا [4] بيعتي ، وألَّبا [5] عليَّ عدوي ، اللهم فلا تُحكم لهما ما أبرما ، وأرهما المساءة فيما عملا وأمَّلا » [6] .

* * *

---

(١) تداككتم : تزاحمتم وتجمعتم .

(٢) الهيم : العطاش التي بلغ منها العطش مبلغه .

(٣) يوم ورودها ومجيئها إلى الحياض للشرب .

(٤) نكث البيعة : نقضها بعد إبرامها وإعطائها للإمام .

(٥) التأليب : التحريض .

(٦) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه (٤ / ٦٩) .

معاناته مع أهل الكوفة

وخطب خطبة على منبر الكوفة فقال :

« انظروا هذه الحكومة ، فمَنْ دعا إليها فاقتلوه وإن كان تحت عمامتى هـذه .

فقال له عدى بن حاتم : قلت لنا أمس : مَنْ أبى عنها فاقتلوه ، وتقول لنا اليوم : من دعا إليها فاقتلوه ، والله ما ندرى ما نصنع بك .

وقام إليه رجل أحدب من أهل العراق فقال : أمرتَ بها أمس وتنهى عنها اليوم ، فأنت كما قال الأول : آكلك وأنا أعلم ما أنت .

فقال على : ألِى يقال هذا ؟

أصبحتُ أذكرُ أرحَاماً وآصِرَةً [١] بُدلْتُ منها هُوِىَّ الريحِ بالقصبِ

أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به ، ونهيتكم عما نهيتكم عنه ، حملتكم على المكروه الذى جعل الله عاقبته خيراً إذا كان فيه ، لكانت الوثقى التى لا تُفْصم ، ولكن متى وإلى متى أداويكم ؟

إنى والله بكم كناقش [٢] الشوكة بالشوكة ، ياليت لى بعض قومى ، وليت لى من بعد خير قومى .

اللهم إن دجلة والفرات نهران أعجمان أصمَّان أبكمان ، اللهم سلِّط عليهما بحرك ، وانزع منهما بصرك ، وَىْ للنَّزَعة بأشطانِ الرَّكِىّ [٣] ، دُعوا

---

(١) الآصرة : ما يربط إنساناً بآخر مثل الرحم أو القرابة أو المصاهرة أو المعروف .

(٢) نقش الشوكة : استخرجها حتى لا يُترَكُ منها شىء فى الجسد .

(٣) الركى : هو البئر . وأشطان البئر : الحبال الطويلة الشديدة الفَتْل ، يستخرج بها الماء من البئر .

إلى الإسلام فقبلوه ، وقرأوا القرآن فأحسنوه ، ونطقوا بالشعر فأحكموه ، وهُيِّجوا إلى الجهاد فولوا اللقاح أولادها ، وسلبوا السيوف أغمادها [1] ، ضرباً ضرباً ، وزحفاً زحفاً ، لا يتباشرون بالحياة ، ولا يُعزَّون على القتلى .

أولئك إخوانى الذاهبون فحقَّ البكاءُ لهم أنْ يَطيبا

رُزِئْتُ حبيباً على فاقةٍ وفارقت بعد حبيبٍ حبيبا

ثم نزل تدمع عيناه .

فقال نافع بن كليب : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون على ما صرت إليه . فقال : نعم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، أُقوِّمهم والله غُدْوة ، ويرجعون إليَّ عشية ، مثل ظهر الحية ، حتى متى وإلى متى ؟ حسبى الله ونعم الوكيل »[2] .

* * *

(١) الأغماد : جمع غمد ، وهو الجراب الذى يُدْخل فيه السيف .

(٢) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه (٤ / ٧٣) .

(٣٥)

خطبة على بن أبى طالب الغراء

« الحمد لله الأحد الصمد ، الواحد المنفرد ، الذى لا منْ شيء كان ، ولا منْ شيء خُلِق إلا وهو خاضع له ، قدرة بِان بها من الأشياء ، وبانت الأشياء منه ، فليست له صفة تنال ، ولا حَدٌّ يضرب له فيه الأمثال ، كلٌّ دون صفته تحبير [١] اللغات ، وضلَّتْ هناك تصاريف الصفات ، وحارت دون ملكوته مذاهب التفكير ، وانقطعت دون علمه جوامع التفسير ، وحالت دون غيبه حُجُبٌ تاهتْ فى أدنى دُنُّوها طامحات العقول .

فتبارك الله الذى لا يبلغه بُعْد الهمم ، ولا يناله غَوْصُ الفِطَنِ ، وتعالى الذى ليس له نعت موجود ، ولا وقت محدود .

وسبحان الذى ليس له أول مبتدا ، ولا غاية منتهى ، ولا آخر يفنى ، وهو سبحانه كما وصف نفسه ، والواصفون لا يبلغون نعته ، أحاط بالأشياء كلها علْمه ، وأتقنها صنعه ، وذلَّلها أمره ، وأحصاها حفظه ، فلا يعزب عنه غيوب الهوى ، ولا مكنون ظُلَم الدُّجى [٢] ، ولا ما فى السماوات العلى ، إلى الأرض السابعة السفلى ، فهو لكل شيء منها حفيظ ورقيب أحاط بها .

الأحد الصمد ، الذى لم تغيره صروف [٣] الأزمان ، ولم يتكاء ده [٤] صنع شيء منها كان ، قال لما شاء أن يكون ، كُنْ فكان ، ابتدع ما خلق ، بلا مثال سابق ، ولا تعب ولا نصب .

وكل عالم من بعد جهل تعلم ، والله لم يجهل ولم يتعلم ، أحاط بالأشياء

---

(١) تحبير اللغات : تنميق الألفاظ وتحسينها واختيار أفخمها .

(٢) الدجى : الليل المظلم .

(٣) صروف الأزمان : حوادثها ومصائبها ونوائبها .

(٤) لم يتكاء ده : لم يشق عليه .

كلها علماً ، ولم يزدد بتجربتها خُبراً ، علمه بها قبل كونها كعلمه بها بعد تكوينها ، لم يُكوِّنها لتسديد سلطان ، ولا خوف من زوال ولا نقصان ، ولا استعانة على ضدٍّ مناوىء (١) ، ولا ندٍّ مكاثر ، ولكن خلائق مربوبون ، وعباد داخرون (٢) .

فسبحان الذى لم يؤده (٣) خَلْق ما ابتدأ ، ولا تدبير ما برأ ، خلق ما علم وعلم ما أراد ، ولا يتفكر على حادث أصاب ، ولا شبهة دخلت عليه فيما شاء ، لكن قضاء متقن ، وعلم مُحْكم ، وأمرٌ مُبْرمٌ .

توحد فيه بالربوبية ، وخصَّ نفسه بالوحدانية ، فلبس العزَّ والكبرياء ، واستخلص المجد والسَّناء (٤) ، واستكمل الحمد والثناء ، فانفرد بالتوحيد ، وتوحَّد بالتمجيد ، فجلَّ سبحانه وتعالى عن الأبناء ، وتطَّهر وتقدَّس عن ملامسة النساء ، فليس له فيما خلق ندٌّ (٥) ، ولا فيما ملك ضدٌّ .

هو الله الواحد الصمد ، الوارث للأبد ، الذى لا يبيد ولا ينفد ، ملك السماوات العلى والأرضين السفلى ، ثم دنا فَعلاَ ، وعَلاَ فدنَا ، له المثل الأعلى والأسماء الحسنى ، والحمد لله رب العالمين .

ثم إن الله تبارك وتعالى سبحانه وبحمده ، خلق الخَلْق بعلمه ، ثم اختار منهم صفوته [لنفسه] ، واختار من خيار صفوته أمناء على وحيه ، جعلهم أصفياء ، مصطفين أنبياء ، مهديِّين نُجباء (٦) ، استودعهم وأقرهم في خير مستقر ، تناسختهم أكارم الأصلاب ، إلى مطهرات الأمهات ، كلما مضى منهم سلف ، انبعث لأمره منهم خلف .

حتى انتهت نبوة الله وأفضت كرامته إلى محمد ﷺ ، فأخرجه من

(١) المناوىء : المعادى الذى يناصب غيره العداء .

(٢) داخرون : صاغرون أذلاء .

(٣) أى لم يشق عليه خلق شىء ولا بذل فيه مجهوداً .

(٤) السَّناء : المجد والشرف والرِّفعة .

(٥) الند : المثل والشبيه والنظير .

(٦) نجباء : جمع نجيب وهو الرجل الفاضل السخى الكريم .

أفضل المعادن مَحْتداً [١] ، وأكرم المغارس منبتاً ، وأمنعها ذِرْوَةً ، وأعزها أرومة [٢] ، وأوصلها مكرمة ، من الشجرة التى صاغ منها أمناء ، وانتخب منها أنبياء .

شجرة طيبة العود ، معتدلة العمود ، باسقة [٣] الفروع ، مخضرة الأصول والغصون ، يانعة [٤] الثمار ، كريمة المجتنى ، فى كرم نبتت ، وفيه بسقت وأثمرت ، وعزَّت فامتنعت ، حتى أكرمه الله بالروح الأمين ، والنور المبين ، فختم به النبيين ، وأتم به عدة المرسلين ، خليفته على عباده ، وأمينه فى بلاده ، زيَّنه بالتقوى ، وآثار الذِّكرى .

هو إمام مَنْ اتقى ، ونصر مَنْ اهتدى ، سراج لمع ضوؤه ، وزَنْد برق لمعه ، وشهاب سطع نوره ، فاستضاءت به العباد ، واستنارت به البلاد ، وطوى به الأحساب ، وأزجى [٥] به السحاب ، وسخَّر له البُراق [٦] ، حتى صافحته الملائكة ، وأذعنت له الأبالسة .

هدم به أصنام الآلهة ، سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه فَصْل ، وحكمه عَدْل ، فصدع [٧] ﷺ بما أمره به ، حتى أفصح بالتوحيد دعوته وأظهر فى خلقه . لا إله إلا الله ، حتى أُذعِن له بالربوبية ، وأُقرّ له بالعبودية والوحدانية .

اللهم فخُصَّ محمداً ﷺ بالذكر المحمود ، والحوض المورود ، اللهم آتِ محمداً الوسيلة ، والرِّفعة والفضيلة ، واجعل فى المصطفين محلَّته ، وفى

(١) المحتد : الأصل والطبع .

(٢) الأرومة : الأصل .

(٣) بسق الشىء : طال جداً . الباسق : الشديد الطول والارتفاع .

(٤) الثمار اليانعة : الناضجة .

(٥) أى دفع به السحاب وساقه . والريح تزجى السحاب أى تسوقه برفق .

(٦) البراق : اسم الدابة التى ركبها رسول الله ﷺ فى ليلة الإسراء ، سُمِّيت بذلك لنصوع لونها وشدة بريقها ، وقيل : لسرعة حركتها فكانت شبيهة بالبرق .

(٧) صدع بالشىء تكلم به جهاراً وجهر بالحق .

الأعلين درجته ، وشَرِّف بنيانه ، وعَظِّم برهانه ، واسْقنا بكأسه ، وأَوْرِدْنا حوضه ، واحشرنا فى زمرته ، غير خزايا ولا ناكثين ، ولا شاكين ولا مرتابين ، ولا ضالين ولا مفتونين ، ولا مُبدِّلين ولا حائدين ولا مُضلِّين .

اللهم أعطِ محمداً ﷺ من كل كرامة أفضلها ، ومن كل نعيم أكمله ، ومن كل عطاء أجزله ، ومن كل قَسْم أتمَّه ، حتى لا يكون أحد من خَلْقك أقرب منك مكاناً ، ولا أحظى عندك منزلة ، ولا أدنى إليك وسيلة ، ولا أعظم عليك حقاً ولا شفاعة من محمد .

واجمع بيننا وبينه فى ظل العيش ، وبَرْد الروح ، وقرة الأعين ، ونضرة السرور ، وبهجة النعيم ، فإنا نشهد أنه قد بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة والنصيحة ، واجتهد للأمة ، وجاهد فى سبيلك ، وأوذى فى جنبك ، ولم يخَفْ لومة لائم فى دينك ، وعَبدك حتى أتاه اليقين .

إمام المتقين ، وسيد المرسلين ، وتمام النبيين ، وخاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين .

اللهم ربَّ البيت الحرام ، وربَّ البلد الحرام ، وربَّ الركن والمقام ، ورب المشعر الحرام ، بلِّغْ محمداً منا السلام .

اللهم صَلِّ على ملائكتك المقربين ، وعلى أنبيائك المرسلين ، وعلى الحفظة الكرام الكاتبين ، وصلى الله على أهـل السماوات وأهـل الأرضين مـن المؤمنيـن »[1] .

* * *

(١) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه (٤ / ٧٤ ـ ٧٦) .

(٣٦)

خطبته الزهراء

« الحمد لله الذى هو أول كل شىء وبديه [١] ، ومنتهى كل شىء ووليه ، وكل شىء خاشع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع إليه ، وكل شىء مستكين له .

خشعت له الأصوات ، وكلّت دونه الصفات ، وضلّت دونه الأوهام ، وحارت دونه الأحلام [٢] ، وانحسرت [٣] دونه الأبصار ، لا يقضى فى الأمور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه .

سبحانه ما أجلَّ شأنه ، وأعظم سلطانه ، تسبح له السموات العلى ، ومَنْ فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة ، والملك والقدرة ، والحول والقوة ، يقضى بعلم ، ويعفو بحلم .

قوة كل ضعيف ، ومَفْزع كل ملهوف ، وعزُّ كل ذليل ، ووليُّ كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة ، المطّلع على كل خَفيَّة ، المحصى لكل سريرة ، يعلم ما تُكِنُّ الصدور ، وما تُرْخَى عليه السُّتور .

الرحيم بخلقه ، الرؤوف بعباده ، مَنْ تكلم منهم سمع كلامه ، ومَنْ سكت منهم علم ما فى نفسه ، ومَنْ عاش منهم فعليه رزقه ، ومن مات منهم فإليه مصيره ، أحاط بكل شىء علمه ، وأحصى كل شىء حفظه .

اللهم لك الحمد عدد ما تحي وما تميت ، وعدد أنفاس خلقك ولفظهم ولَحْظ أبصارهم ، وعدد ما تجرى به الريح ، وتحمله السحاب ، ويختلف به الليل والنهار ، ويسير به الشمس والقمر والنجوم ، حمداً لا ينقضى عدده ، ولا يفنى أمده .

(١) البديه : أول كل شىء ومبدأه .
(٢) الأحلام : العقول .
(٣) انحسرت : تعبت وكلّت الأبصار فلم تستطع أن تراه .

اللهم أنت قبل كل شيء ، وإليك مصير كل شيء ، وتكون بعد هلاك كل شيء ، وتبقى ويفنى كل شيء ، وأنت وارث كل شيء ، أحاط علمك بكل شيء ، وليس يُعجزك شيء ، ولا يتوارى عنك شيء ، ولا يقدر أحد قدرتك ، ولا يشكرك أحد حَقَّ شكرك ، ولا تهتدى العقول لصفتك ، ولا تبلغ الأوهام حدَّك .

حارت الأبصار دون النظر إليك ، فلم ترك عين فتخبر عنك كيف أنت وكيف كنت ، لا نعلم اللهم كيف عظمتك ، غير أنَّا نعلم أنك حيٌّ قيوم ، لا تأخذك سنـةٌ [1] ولا نوم ، لم يَنْتَه إليك نظر ، ولم يدركك بصر ، ولا يقدر قدرتك مَلَكٌ ولا بشر .

أدركتَ الأبصار ، وكَتبتَ الآجال ، وأحصيتَ الأعمال ، وأخذتَ بالنواصى والأقدام ، لم تخلق الخلْق لحاجة ولا لوحشة ، ملأتَ كل شيء عظمة ، فلا يُردّ ما أردت ، ولا يُعْطى ما منعت ، ولا ينقص سلطانك مَنْ عصاك ، ولا يزيد فى ملكك مَنْ أطاعك .

كل سرٍّ عندك علمه ، وكل غيب عندك شاهده ، فلم يستتر عنك شيء ، ولم يشغلك شيء عن شيء ، وقدرتك على ما تقضى كقدرتك على ما قضيت ، وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف ، وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات .

فإليك المنتهى ، وأنت الموعد ، لا مَنْجى إلا إليك ، بيدك ناصية كل دابة ، وبإذنك تسقط كل ورقة ، لا يعزب [2] عنك مثقال ذرة ، أنت الحيُّ القيوم .

سبحانك ، ما أعظم ما يُرى من خَلْقك ، وما أعظم ما يُرَى من ملكوتك ، وما أقلهما فيما غاب عنا منه ، وما أسبغ [3] نعمتك فى الدنيا وأحقرها

---

(١) السِّنة : النعاس .

(٢) أى لا يغيب عن علمه شيء ولو كان مثقال ذرة .

(٣) أى أ ن نعمته سابغة تامة .

فى نعيم الآخرة ، وما أشد عقوبتك فى الدنيا ، وما أيسرها فى عقوبة الآخرة .

وما الذى نرى من خلقك ، وتعتبر من قدرتك ، ونصف من سلطانك ، فيما يغيب عنا منه ، مما قَصُرَتْ أبصارنا عنه ، وكلَّت عقولنا دونه ، وحالت الغيوب بيننا وبينه .

فمَنْ قرع سنَّه ، وأعمل فكره : كيف أقمت عرشك ؟ وكيف ذرأت (١) خلقك ؟ وكيف علَّقتَ فى الهواء سماواتك ؟ وكيف مددت أرضكَ ؟ يرجع طَرْفه (٢) حاسراً و عقله مبهُوراً ، وسمعه والهاً (٣) ، وفكره مُتحيِّراً .

فكيف يطلب علم ما قبل ذلك من شأنك ، إذ أنت وحدك فى الغيوب التى لم يكن فيها غيرك ، ولم يكن لها سواك ، لا أحد شهدك حين فطرت الخَلْق ، ولا أحد حضرك حين ذرأت النفوس .

فكيف لا يعظم شأنك عند مَنْ عرفك ؟ !! وهو يرى من خلقك ما ترتاع به عقولهم ، ويملأ قلوبهم ، من رعد تفزع له القلوب ، وبرق يخطف الأبصار ، وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك ، وليست فيهم فَترة (٤) ولا عندهم غفلة ، ولا بهم معصية .

هم أعلم خَلْقك بك ، وأخوفهم لك ، وأقومهم بطاعتك ، ليس يغشاهم نور العيون ، ولا سهو العقول ، لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم الأرحام ، أنشأتهم إنشاء ، وأسكنتهم سماواتك ، وأكرمتهم بجوارك ، وائتمنتهم على وحيك ، وجنَّبتهم الآفات ، ووقيتهم السيئات ، وطهَّرتهم من الذنوب ، فلولا تقويتك لم يقووا ، ولولا تثبيتك لم يثبتوا ، ولولا رهبتك لم يطيعوا ، ولولاك

---

(١) ذرأ الخلق : خلقهم .

(٢) الطرف : البصر .   حاسراً : كليلاً .

(٣) الوله : ذهاب العقل والتحير .

(٤) الفترة : الضعف .

لم يكونوا .

أما إنهم على مكانتهم منك ، ومنزلتهم عندك ، وطول طاعتهم إياك ، لو يعاينون ما يخفى عليهم لاحتقروا أعمالهم ، ولَعلِموا أنهم لم يعبدوك حَقَّ عبادتـك .

فسبحانك خالقاً ومعبوداً ومحموداً بحسن بلائك عند خَلْقك ، أنت خلقت ما دبرته مطعماً ومشرباً ، ثم أرسلت داعياً إلينا ، فلا الداعى أجبنا ، ولا فيما رغّبتنا فيه رغبنا ، ولا إلى ما شوَّقتنا إليه اشتقنا .

أقبلنا كلُّنا على جيفة [1] نأكل منها ولا نشبع ، وقد زاد بعضنا على بعض حرصاً ، لما يرى بعضنا من بعض ، فافتضحنا بأكلها ، واصطلحنا على حُبِّها ، فأعمت أبصار صلاحنا وفقهائنا ، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة ، ويسمعون بآذان غير سميعة ، فحيثما زالت زالوا معها ، وحيثما مالت أقبلوا إليها .

وقد عاينوا المأخوذين على الغِرَّة [2] كيف فجأتهم الأمور ، ونزل بهم المحذور ، وجاءهم من فراق الأحبة ما كانوا يتوقعون ، وقدموا من الآخرة إلى ما كانوا يوعدون ، فارقوا الدنيا وصاروا إلى القبور ، وعرفوا ما كانوا فيه من الغرور ، فاجتمعت عليهم حسرتان : حسرة الفوت وحسرة الموت .

فاغبرَّت لها وجوههم ، وتغيرت بها ألوانهم ، وعرقت بها جباههم ، وشخصت أبصارهم ، وبردت أطرافهم ، وحِيلَ بينهم وبين المنطق .

وإن أحدهم لَبين أهله ينظر ببصره ويسمع بأذنه ، ثم زاد الموت فى جسده حتى خالط بصره ، فذهبت من الدنيا معرفته ، وهلكت عند ذلك

---

(١) الجيفة : هى جثة كل شىء يموت إذا أنتنت وخرجت رائحتها . والمقصود هنا الدنيا ، فهى جيفة منتنة لا يتكالب عليها إلا كلاب الطريق .

(٢) على غرة : على غفلة على سبيل المفاجأة .

حُجَّته ، وعاين هَوْلَ أمر كان مُغطًّى عليه ، فأحدَّ [1] لذلك بصره .

ثم زاد الموت فى جسده ، حتى بلغت نفسه الحلقوم ، ثم خرج روحه من جسده فصار جسداً مُلْقى لا يجيب داعياً ، ولا يسمع باكياً ، فنزعوا ثيابه وخاتمه ، ثم وضَّأوهُ وضوء الصلاة ، ثم غسَّلوه وكفّنوه أدراجاً [2] فى أكفانه ، وحنَّطوه ثم حملوه إلى قبره ، فدلّوه [3] فى حفرته ، وتركوه مُخلّى بمقطّعات من الأمور ، وتحت مسألة منكر ونكير [4] ، مع ظلمة وضيق ، ووحشة قبر ، فذاك مثواه حتى يَبْلَى جسده ويصير تراباً .

حتى إذا بلغ الأمر إلى مقداره ، وأُلْحِق آخر الخَلْق بأوَّله ، وجاءه أمر من خالقه ، أراد به تجديد خَلْقه ، فأمرَ بصوت من سماواته ، فمارت السماوات مَوْراً [5] ، وفزع مَنْ فيها ، وبقى ملائكتها على أرجائها .

ثم وصل الأمر إلى الأرض ـ والخَلْق رُفَات لا يشعرون ـ فأرجّ [6] الأرض وأرجفها وزلزلها ، وقلع جبالها ونسفها وسيَّرها ، وركب بعضها بعضاً من هيبته وجلاله ، وأخرج مَنْ فيها ، فجددهم بعد بلائهم ، وجمعهم بعد تفرقهم ، يريد أن يحصيهم ويميزهم .

فريقاً فى ثوابه ، وفريقاً فى عقابه ، فخلد الأمر لأبده دائماً ، خيره وشره ، ثم لم ينسَ الطاعة من المطيعين ، ولا المعصية من العاصين ، فأراد عز وجل أن يجازى هؤلاء وينتقم من هؤلاء .

فأثاب أهل الطاعة بجواره وحلول داره وعيش رغد وخلود أبد ومجاورة

---

(١) أى جعله حديداً شديداً شاخصاً .

(٢) الإدراج : لفُّ الشيء فى الشيء . فها هو قد لُفَّ فى أكفانه .

(٣) دلوه أى أنزلوه .

(٤) ذلك أن الإنسان إذا وُضع فى قبره وذهب عنه أصحابه وأهله وخلاَّنه جاءه ملكَان منكر ونكير ، فيُقعِدان الميت ويسألانه : مَنْ ربك ؟ وما دينك ؟ وما النبى الذى بُعِثَ فيكم

(٥) مارت السماوات أى تحركت وجاءت وذهبت حتى اختل نظامها .

(٦) أى جعلها ترتج وتهتز وتضطرب وتلقى ما فى جوفها .

الرب ، وموافقة محمد ﷺ ، حيث لا ظعن (١) ولا تغيُّر ، وحيث لا تصيبهم الأحزان ، ولا تعترضهم الأخطار ، ولا تشخصهم الأسفار .

وأما أهل المعصية فخلَّدهم فى النار ، وأوثق منهم الأقدام ، وغُلَّت (٢) منهم الأيدى إلى الأعناق ، فى لهب قد اشتد حرّه ، ونار مُطبقة (٣) على أهلها ، لا يدخل عليهم بها رَوْح (٤) ، همهم شديد ، وعذابهم يزيد ، ولا مُدَّة للدار تنقضى ، ولا أجل للقوم ينتهى .

اللهم إنى أسألك بأن لك الفضل ، والرحمة بيدك ، فأنت وليهما ، لا يليهما أحد غيرك ، وأسألك باسمك المخزون المكنون ، الذى قام به عرشك وكرسيك وسماواتك وأرضك ، وبه ابتدعت خلقك ، والصلاة على محمد ، والنجاة من النار برحمتك ، آمين ، إنك ولىٌّ كريم .

* * *

---

(١) الظعن : الرحيل .

(٢) غُلَّتْ الأقدام : قُيِّدتْ وسُلْسِلتْ بالسلاسل والقيود .

(٣) مطبقة على أهلها : قد أحاطت بهم فلا يستطيعون الفكاك منها .

(٤) الرَّوْح : هو النسيم العليل الذى ينعش النفوس ويسرُّها .

(٣٧)

الخوارج

خطب على بن أبى طالب حيث قُتِلَ أهل النهروان فقال :

« أيها الناس إن رسول الله ﷺ قد حدثنا بأقوام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة ، ثم لا يرجعون فيه أبداً حتى يرجع السهم على فُوقه [١] ، وإن آية ذلك أن فيهم رجلاً أسود مخدج [٢] اليد ، أحد ثدييه كثدى المرأة ، لها حلمة كحلمة ثدى المرأة ، حوله سبع هُلبات [٣] ، فالتمسوه فإنى أراه فيهم .

فالتمسوه فوجدوه إلى شفير [٤] النهر تحت القتلى ، فأخرجوه ، فكبّر علىٌّ رضى الله عنه فقال : الله أكبر صدق الله ورسوله ، وإنه لمتقلد قوساً له عربية ، فأخذها بيده فجعل يطعن بها فى مخدجته [٥] ويقول : صدق الله ورسوله ، وكَبَّر الناس حين رأوه ، واستبشروا وذهب عنهم ما كانوا يجدون » [٦] .

* * *

---

(١) الفوق من السهم : موضع الوتر من السهم .

(٢) مخدج اليد : أى ناقص اليد أو بعض أصابعه .

(٣) هُلبات : جمع هُلْبة ، وهو ما غلظ من الشَّعر .

(٤) شفير النهر : حافته وحَرْفه .

(٥) مخدجته : أى موضع النقص فى يده .

(٦) مسند أحمد (١ / ٨٨) ومسند الحميدى (١ / ٣١) .

(٣٨)

تقوى الله وحرماته

كانت أول خطبة خطبها بعد توليه أمر المسلمين فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً بيَّن فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير ودعوا الشر ، الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يُؤدِّكم إلى الجنة .

إن الله حرَّم حُرماً غير مجهولة ، وفضَّل حرمة المسلم على الحُرَم كلها ، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين ، والمسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق ، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب .

بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت ، فإن الناس أمامكم ، وإن ما من خلفكم الساعة تحدوكم ، تخفَّفُوا تلحقوا ، فإنما ينتظر الناس أُخْـرَاهم .

اتقوا الله عبادَه فى عباده وبلاده ، إنكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم ، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه ، وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدعوه .

﴿ واذكُروا إذْ أنتُم قليلٌ مُسْتضعفُونَ فى الأرضِ ﴾ (الأنفال : ٢٦) »[١]

* * *

(١) تاريخ الطبرى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف (٤ / ٤٣٦) الطبعة الرابعة .

(٣٩)

وقال رضى الله عنه فى خطبة يخاطب بها أهل الكوفة :

« يا أهل الكوفة ، كلما سمعتم بمنْسَرٍ [١] من مناسر أهل الشام انجحر [٢] كل منكم فى بيته وغلق عليه بابه انجحار الضبِّ [٣] فى جُحْره ، والضبع فى وجاره [٤] ، المغرور والله مَنْ غررتموه ، ولمن فارقكم فاز بالسهم الأصيب [٥] .

لا أحرار عند النداء ، ولا إخوان ثقة عند النجاة ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، ماذا مُنيتُ به منكم ، عُمىٌ لا تبصرون ، وبُكْمٌ [٦] لا تنطقون ، وصُمٌّ لا تسمعون ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون » [٧] .

* * *

(١) المنسر : قطعة من الجيش تمر قُدَّامَ الجيش الكبير .

(٢) انجحر : أى كأنه فأر مذعور دخل جُحْره خوفاً وهلعاً .

(٣) الضب : دويبة من الحشرات ، وذيله ذو عُقَدٍ خشن ، لونه مُغْبر بسواد ، وإذا سمن اصفرَّ صدره .

(٤) الوجار : هو جُحْر الضبع الذى يأوى إليه ويختبىء فيه .

(٥) الذى يصيب هدفه فلا يخيب .

(٦) الأبكم : هو الذى يولد أخرس .

(٧) البداية والنهاية (٧ / ٣٣١) .

(٤٠)

الموت وما بعده

وقد صعد على المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه وذكر الموت فقال :

عبادَ الله ، الموت ليس منه فَوْتٌ ، إنْ أقمتم له أخذكم ، وإنْ فررتم منه أدرككم ، فالنجا النجا ، والوحا الوحا [١] ، إن وراءكم طالبٌ حثيثٌ [٢] القبر ، فاحذروا ضغطته وظلمته ووحشته .

ألا وإن القبر حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ، ألا وإنه يتكلم فى كل يوم ثلاث مرات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الدود ، أنا بيت الوحشة .

ألا وإن وراء ذلك يوم يشيب فيه الصغير ويسكر فيه الكبير ﴿ وتضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حملَها * وترَى الناسَ سُكَارَى ومَا هم بسُكَارَى ولكن عذابَ الله (الحج : ٢)

ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه ، نار حَرُّها شديد ، وقَعْرها بعيد ، وحليها ومقامعها حديد ، وماؤها صديد ، وخازنها مالك ليس لله فيه رحمة .

قال : ثم بكى وبكى المسلمون حوله .

ثم قال : ألا وإن وراء ذلك جنة عَرْضها السماوات والأرض أُعدَّتْ للمتقين ، جعلنا الله وإياكم من المتقين ، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم »[٣] .

* * *

---

(١) الوحا الوحا : السرعة والعجلة والمبادرة .

(٢) الحثيث : السريع .

(٣) البداية والنهاية (٨ / ٧) .

(٤١)

وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب لابنه الحسن

« من الوالد الفانى ، المقر للزمان ، المدبر للعمر ، المستسلم فيه للدهر ، الذَّامُّ للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن إليهم عنها غداً ، إلى المولود المؤمِّل ما لا يدرك ، السالك سبيل مَنْ قد هلك ، غَرَض الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورمية المصائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، وحلف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات .

أما بعد ، فإن فيما قد تبينت من إدبار الدنيا عَنِّى ، وجنوح [١] الدهر علىّ ، وإقبال الآخرة علىَّ ، ما يزعنى [٢] عن ذكر ما سواى ، والاهتمام بما ورائى ، غير أنِّى حين تفرد بى دون هموم الناس هَمُّ نفسى ، فصدقنى رأيى ، وتصرَّف بى هواى ، وصرح إلى محض أمرى ، فأفضى بى إلى جِدٍّ لا يُزرى [٣] به لعب ، وصدق لا يشوبه كذب .

وجدتُكَ - أى بُنىّ - من بعضى ، بل وجدتك من كُلِّى ، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابنى ، وكأن الموت لو أتاك أتانى ، فعنانى [٤] من أمرك ما عنانى من نفسى ، فكتبت إليك كتابى هذا إن أنا بقيت أو فنيت .

وإنى أوصيك يا بنى بتقوى الله ، ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله فهو أوثق السبب بينك وبينه .

يا بنى أحي قلبك بالموعظة ، وموِّته بالزهد ، وقوِّه باليقين ، وذلِّله بذكر

(١) جنوح الدهر : مَيْله على الإنسان بمصائبه ودواهيه .
(٢) ما يزعنى : يكفنى ويزجرنى .
(٣) لا يتهاون ويتناقص به لعب .
(٤) فعنانى من أمرك : فشق علىَّ وأهمَّنى .

الموت ، واكسره بالفناء ، وبصِّره فجائع الدنيا ، وحذِّره صولة [1] الدهر ، وفحِّشْ تقلُّب الأيام ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكِّرْه ما أصاب مَنْ كان قبلك .

وسرْ فى ديارهم ، واعتبر بآثارهم ، وانظر ما فعلوا ، وعمَّن انتقلوا ، وأين حَلُّوا ، فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبَّة ، وحلُّوا دار الغُرْبة ، وكأنك عن قليل قد صرْت كأحدهم ، ، فأصلح مثْواك ، واحْرِز [2] آخرتك ، ودَع القول فيما لا تعرف ، والدخول فيما لا تكلف ، وأمسكْ عن السَّيْر إذا خِفْتَ ضلالة ، فإن الكفَّ عند حيرة الضلالة خير من ركوب الأهوال .

وأمُرْ بالمعروف تَكُنْ من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وبائن [3] مَنْ فعلَهُ بجهدك ، وخُضْ الغمرات إلى الحق ، وتفقَّه فى الدين ، وعوِّد نفسك الصبر على المكروه ، وألجئ نفسك فى الأمور كلها إلى الله ، فإنك تلجئها إلـى كهف حريـز [4] ومانع عزيز .

وأخلص فى المسألة لربك ، فإن بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهَّم وصيتى لا تذهبنَّ عنك صَفْحاً [5] .

أى بُنىّ .. إنى لما رأيتنى قد بلغت سناً ، ورأيتنى ازددت وهناً ، بادرت وصيتى إياك خصالاً منهن إن تعجل بى أجلى قبل أن أقضى إليك ما فى نفسى ، وأنقص فى رأيى كما نقصت فى جسمى ، أو تسبقنى إليك بعض غلبة الهوى وفتن الدنيا ، فتكون كالصَّعْب النَّفُور [6] .

وإنما قلب الحدَث [7] كالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شىء قبلته ،

---

(١) صولة الدهر : سطوته وقهره .

(٢) احرز آخرتك : اجعلها مقصدك دائماً وضُمُّها إليك واحفظها ولا تفرط فيها .

(٣) أى فارق مَنْ فعل المنكر جهد طاقتك وبكل ما تملك من جهد .

(٤) أى محفوظ مُصَانٌ منيع .

(٥) صفحاً : جانباً . أى لا تدع وصيتى هذه تذهب عنك جانباً أو تبتعد عنك .

(٦) أى تنفر من نصيحتى فلا تقبلها .

(٧) الحدث : الشاب الحديث السن الصغير .

فباكرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويُشغل لُبُّك [١] ، لتستقبل بجِدٍّ رأيك ما قد كفاك تجربته ، فتكون قد كُفيتَ مؤْنة الطلب ، وعوفيت من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا فيه .

أى بنى ، إنى لم أكن عمِّرتُ عمر من كان قبلى ، فقد نظرت فى أعمارهم ، وفكَّرت فى أخبارهم ، وسرْتُ فى آثارهم ، حتى عُدْتُ كأحدهم ، بل كأننى لما قد انتهى إلىَّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت من كل أمر نحيلته [٢] ، وتوخيت لك جميلته ، وصرفت عنك مجهوله .

ورأيت عنايتى بك واجبة علىَّ ، فجمعتُ لك ما إن فهمتَه أدَّبك ، فاغتنم ذلك وأنت مقتبل بين النية واليقين ، فعليك بتعليم كتاب الله وتأويله ، وشرائع الإسلام وأحكامه وحلاله وحرامه ، لا تجاوز ذلك قبله إلى غيره .

فإن أشفقت أن تلبسك شبهة لما اختلف فيه الناس من أهوائهم ورأيهم مثل الذى لبسهم ، فتقصد فى تعليم ذلك بلطف .

يا بنى ، وقَدِّم عنايتك فى الأمر ليكون ذلك نظراً لدينك لا ممارياً [٣] ولا مفاخراً ولا طالباً لعَرَضٍ عاجلتك ، فإن الله يوفقك لرشدك ، ويهديك لقصدك ، فاقبل عهدى إليك ، ووصيتى لك .

واعلم يا بنى أن أحبَّ ما أنت آخذ به من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما افترض الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه أوَّلوك من آبائك ، والصالحون من أهل بيتك ، فإنهم لم يدعوا أن ينظروا لأنفسهم كما أنت ناظر ، وفكَّروا كما أنت مفكر ، ثم رَدَّهم ذلك إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عما لم يُكلَّفوا .

---

(١) لُبُّك : عقلك .

(٢) نحيلته : خلاصته . وهى مأخوذة من النحل الذى يأخذ من كل الأزهار والرياحين ويعطى لنا خلاصة هذا كله فى شكل عسل .

(٣) المارى هو المجادل فى الباطل بغية الجدال والظهور لا طلباً للوصول للحق .

فإن أبَتْ نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم ما علموا فيكون طلبك ذلك بتعليم وتفهُّم وتدبُّر ، لا بتوارد الشبهات وعلم الخصومات .

وابدأ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك عليه ، والرغبة إليه ، واحذر كل شائبة أدخلت عليك شبهة ، وأسلمتك إلى ضلالة ، فإذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتمَّ رأيك فاجتمع ، كان همُّك فى ذلك هماً واحداً ، فانظر فيما فسَّرتُ لك .

وإن أنت لم يجتمع لك ما تحب من فراغ نظرك فاعلم أنك إنما تخبط خَبْطَ عشواء ، وليس من طالب الدين من خبَّط ولا خلَّط ، والإمساك عند ذلك أمثل .

وإن أول ما أبدؤك به فى ذلك وآخره أنِّى أحمد الله إلهى و إلهك ، إله الأولين والآخرين ، رب مَنْ فى السماوات ومن فى الأرضين بما هو أهله ، وكما هو أهله ، وكما يحب وينبغى له ، وأسأله أن يصلى على نبينا محمد ﷺ ، وأن يُتمَّ علينا نعمه لما وفقنا من مسألته ، والإجابة لنا ، فإن بنعمته تتم الصالحات .

اعلم أى بُنىّ أن أحداً لم ينبىء عن الله عز وجل كما نبأ محمد ﷺ فارْضَ به رائداً ، فإنى لم آلُكَ نصيحة ، ولم تبلغ فى ذلك ، وأنى اجتهدت مبلغى فى ذلك لعنايتى وطول تجربتى وإن نظرى لك كنظرى لنفسى .

اعلم أن الله واحد أحد صمد ، لا يُضاده فى مُلْكه أحدٌ ، ولا يزول ولم يَزُلْ ، أول من قبل الأشياء بلا أولية ، وآخر بلا نهاية ، حكيم عليم قديم ، لم يزل كذلك .

فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغى لمثلك فى صغَر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجتك إلى ربك ، فاستعنْ بإلهك فى طلب حاجتك ، وتقرب إليه بطاعته ، وارغب إليه بقدرته ، وارهب منه لربوبيته ، فإنه حكيم لم يأمرك إلا بحسن ، ولم يَنْهَكَ إلا عن قبيح .

اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك ، وأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم ، وأحسن كما تحب أن يُحسنَ إليك ، و لا تَقُلْ ما لا تعلم بل قُلْ مما تعلم ، ولا تَقُلْ ما لا تحب أن يقال لك .

اعلم يا بنى أن الإعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب ، فاسْعَ فى كدحك ، ولا تكن خازناً لغيرك ، فإذا هُديتَ لقصدك فكُنْ أخشعَ ما تكون لربك ، واعلم أن أمامك طريقاً ذا مشقة بعيدة وأهوال شديدة ، وأنك لا غنى بك عن حسن الارتياد ، وقَدِّر بلاغك من الزاد مع خِفَّة الظهر ، فلا تحملنَّ على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقله وبالاً عليك .

وإذا وجدت من أهل الحاجة مَنْ يحمل لك زادك ، ويوافيك به حيث تحتاج إليه فاغتنمه ، واغتنم ما أقرضت مَنْ استقرضك فى حال غناك .

واعلم أن أمامك عقبة كئوداً (١) ، مهبطها على جنة أو على نار ، فارتَدْ لنفسك قبل نزولك ، فليس بعد الموت مستعتب (٢) ، ولا إلى الدنيا مُنصرَفٌ .

واعلم أن الذى بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك فى الدعاء ، وضمن الإجابة ، وأمرك أن تسأله فيعطيك ، وتطلب إليه فيرضيك .

وهو رحيم لم يجعل بينك وبينه حجاباً ، ولم يلجئك إلى مَنْ تشفع به إليه ، ولم يمنعك إن أسأت التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يؤيسك من رحمته ، ولم يَسُدّ عليك باب التوبة ، وجعل توبتك النزوع عن الذنب ، وجعل سيئتك واحدة ، وجعل حسنتك عشراً .

إذا ناديتَه أجابك ، وإذا ناجيتَه عَلِم نَجْواكَ ، فأفضيت إليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوت إليه همومك ، واستعنته على أمورك ، وسألته

---

(١) العقبة الكئود : الشاقة الثقيلة .

(٢) أى ليس بعد الموت من استرضاء ، فقد مضى زمان العمل وجاء زمان الحساب حيث لا رجعة للدنيا .

من خزائن رحمته ، التى لا يقدر على إعطائها غيره ، من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الرزق ، وتمام النعمة .

فَأَلْحِحْ فى المسألة ، فبالدعاء تُفتح أبواب الرحمة ، ولا يقنطك (١) إبطاء إجابته ، فإن العطية على قدر النية ، فربما أُخِّرتْ الإجابة لتطول مسألة السائل فيعظم أجره ويُعطى سُؤْله ، وربما ذُخِر ذلك له فى الآخرة ، فيعطى أجر تعبده ، ولا يفعل بعبده إلا ما هو خير له فى العاجلة والآجلة ، ولكن لا يَحدُّ لطفه أحد ، ولا يعرف دقائق تدبيره إلا المصطفون .

وَلْتكُنْ مسألتك لما يبقى ويدوم فى صلاح دنياك ، وتسهيل أمرك وشمول عافيتك ، فإنه قريب مجيب .

اعلم أى بُنىّ أنك خُلقْتَ للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وإنك فى منزل قلعة ، ودار بُلْغة ، وطريق الآخرة ، وإنك طريدة الموت الذى لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، فاحذر أن يدركك وأنت على حال سيئة ، وأعمال مُرْدية (٢) ، فتقع فى ندامة الأبد ، وحسرة لا تنفد ، فتفقد دينك لنفسك ، فدينك لحمك ودمك ، ولا ينقذك غيره .

أى بُنىّ ، أَكْثِرْ ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه ، ونفضى بعد الموت إليه ، واجعله نُصْبَ عينيك ، حتى يأتيك وقد أخذت له حذرك ، ولا يأتيك بغتةً فيُبْهـرك (٣) ، وأكْثِرْ ذكر الآخرة وكثرة نعيمها وحبورها (٤) وسرورها ودوامها وكثرة صنوف لذَّاتها ، وقلة آفاتها إذا سلمت .

وفكِّر فى ألوان عذابها وشدة غمومها ، وأصناف نكالها (٥) إنْ أنت تيقنت ، فإن ذلك يُزهِّدك فى الدنيا ، ويُرغِّبك فى الآخرة ، ويُصغِّر عندك زينة الدنيا ، وغرورها وزهرتها ، فقد نبَّأك الله عنها ، وبيَّن أمرها وكشف

---

(١) القنوط : اليأس .

(٢) مردية : مهلكة .

(٣) فيقهرك ويغلبك .

(٤) الحبور : السرور .

(٥) النكال : العذاب .

عن مساويها .

فإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد [١] أهلها إليها ، وتكالبهم عليها ككلاب عاوية وسباع ضارية ، يهرُّ [٢] بعضهم إلى بعض ، عزيزها ذليلها ، وكثيرها قليلها ، قد أضلَّت أهلها عن قصد السبيل ، وسلكتْ بهم طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منهج الصواب ، فتاهوا فى حيرتها ، وغرقوا فى فتنتها ، واتخذوها ربّاً [٣] ، فلعبت بهم ولعبوا بها ونسوا ما وراءها ، فإياك يا بنى أن تكون مثل مَنْ قد شانته [٤] بكثرة عيوبها .

أى بُنىّ ، إنك إنْ تزهد فيما قد زهدتك فيه من أمر الدنيا ، وتعرض نفسك عنها ، فهى أهل ذلك ، فإن كنت غير قابل نصحى إياك منها فاعلم يقيناً أنك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، فإنك فى سبيل [٥] مَنْ قد كان قبلك ، فأجْملْ فى الطلب ، واعرف سبيل المكتسب ، فإنه رُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرب ، وليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يؤوب [٦] ، وأكْرِم نفسك عن كل دَنيَّة ، وإن ساقتك .

إياك أنْ تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ، وقد جعلك الله به حراً ، وما منفعة خير لا يُدرك باليسير ، ويسير لا يُنال إلا بالعسير ، وإياك أن توجف[٧] بك مطايا الطمع ، فتوردك مناهل [٨] الهلكة .

وإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، فإنك مدرك

---

(١) إخلاد أهلها : ركونهم إلى الدنيا .

(٢) يهر : يكره بعضهم بعضاً .

(٣) أصبحت الدنيا كل حياتهم ، حتى أنهم اعتبروها مصدر الرِّىِّ والهناء ، ومعلوم أن الرِّىَّ هو سبب من أسباب استمرار الحياة .

(٤) شانته : تركت عيباً فيه ووصمته بالمعايب والمساوىء .

(٥) أى أنك سائر فى نفس الطريق الذى سار فيه مَنْ كان قبلك وهو طريق الرحيل عن الدنيا مهما طال عمرك ، فهذا طريق كل حَىٍّ .

(٦) يؤوب : يعود ويرجع إلى أهله وأحبابه .

(٧) توجف : تسرع . الوجيف : السير السريع .

(٨) المناهل : الموارد التى يستقى ويشرب منها الماء .

قسمك وآخذ سهمك ، وإن اليسير من الله أعظم وأكرم ، وإن كان كُلٌّ من الله ، ولله المثل الأعلى .

واعلم أن لك فى يسير مما تطلب فتنال من الملوك افتخاراً وبَيْع عرضك ودينك عليك عار ، فاقتصد فى أمرك تُحمد معقبة عقلك ، إنك لست بائعاً شيئاً من عرضك ودينك إلا بثمن ، والمغبون من حُرِمَ نصيبه من الله ، فخُذْ من الدنيا ما أتاك ، وتولَّ عما تولى عنك .

فإنْ أنت لم تفعل فأجمِلْ فى الطلب ، وإياك ومقاربة مَنْ يشينك ، وتباعد من السلطان ، ولا تأمن خَدع الشيطان ، ومتى ما رأيت منكراً من أمرك فأصلحه بحسن نظرك ، فإن لكل وصف صفة ، ولكل قول حقيقة ، ولكل أمراً وجهاً ، ينال الأريب (١) فيه رشده ، ويُهلِكُ الأحمق بتعسفه فيه نفسَه .

يا بنى .. كم قد رأيت من قيل له تحب أن تعطى الدنيا بما فيها مائة سنة بلا آفة ولا أذى ، لا ترى فيها سوءاً ، ويكون آخر أمرك عذاب الأبد ، فلا يقنع بها ولا يريدها ، ورأيته قد أهلك دينه ونفسه باليسير من زينة الدنيا ، وهذا من كيد الشيطان وحبائله (٢) ، فاحذر مكيدته وغروره .

يا بنى .. أَملِكْ عليك لسانك ، ولا تنطق فيما تخاف الضرر فيه ، فإن الصمت خير من الكلام فى غير منفعة ، وتلافيك ما فرط من همتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك .

واحفظ ما فى الوعاء بشدِّ الوكاءِ (٣) ، واعلم أن حفْظَ ما فى يديك خيرٌ من طلب ما فى يد غيرك ، وحسنُ التدبير مع الكفافِ (٤) أكفى لك من الكثير فى الإسراف ، وحسن اليأس خير لك من الطلب إلى الناس .

---

(١) الأريب : العاقل .

(٢) حبائله : مصايده . مفردها حِبَالة .

(٣) الوكاء : كل سَيْر أو خيط يُشدُّ به فم السِّقاء أو الوعاء .

(٤) الكفاف من القوت : الذى يكون على قدر حاجة الإنسان ويغنيه عن سؤال الناس فلا يزيد عنه شىء ولا ينقص .

يا بنى .. لا تُحدِّث عن غير ثقة فتكون كذاباً ، والكذب داء فَجَانِبْه [١] وأهله .

يا بنى .. العفة مع الشدة خير من الغنى مع الفجور ، مَنْ فكَّر أبصر ، ومَنْ كثر خطؤه هجر ، رُبَّ مُضيِّع ما يسره ، وساعٍ فيما يضره ، من خير حظ المرء قرين صالح ، فقارن أهل الخير تكُنْ منهم ، وبائن أهل الشر تَبِن منهم .

ولا يغلبنَّ عليك سوء الظن ، فإنك لن تدع بينك وبين خليلك صلْحاً ، قد يقال من الحزم سوء الظن .

بئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف أفحش الظلم ، الفاحشة تقصم القلب ، إذا كان الرفق خرقاً [٢] كان الخرق رفقاً ، وربما كان الداء دواء ، وربما نصح غير الناصح وغش المتنصح .

إياك والاتكال على المنى فإنها بضائع النَّوْكَى [٣] ، ذَكِّ [٤] قلبك بالأدب كما تذكى النار الحطب ، ولا تَكُنْ كحاطب الليل وغثاء [٥] السَّيل .

كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جربت ما وعظك ، ومن الكرم لين الشِّيم [٦] ، بادر الفرصة قبل أن تكون غُصَّة ، ومن الحزم العزم [٧] ، ومن سبب الحرمان التوانى ، ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد .

لكل أمر عاقبة ، فرُبَّ مشير بما يضر ، لا خير فى معين مهين ، ولا فى

---

(١) جانبه : ابتعد عنه وعن أهله .
(٢) الخرق : الحمق والجهل .
(٣) النوكى : الحمقى . والأنوك : الأحمق .
(٤) ذك قلبك : أى أشعله واجعله متقداً بالأدب .
(٥) الغثاء : ما يحمله السيل ويسوقه أمامه من الزبد والوسخ وغيره .
(٦) الشيم : الصفات .
(٧) العزم : الاشتداد فى أخذ تعاليم الله بالحزم والعزم الأكيدين .

صديق ظنين [١] ، لا تدع الطلب فيما يحل ويطيب ، فلا بُدَّ من بُلْغة [٢] ، وسيأتيك ما قُدِّر لك .

التاجر مخاطر ، مَنْ حلم ساد ، ومَنْ تفهَّم ازداد ، ولقاء أهل الخير عمارة القلوب ، ساهل ما ذَلَّ لك بقوة .

وإياك أن تطمح بك مطية اللجاج ، وإنْ قارفت سيئة فعجِّل محوها بالتوبة ، ولا تَخُنْ مَنْ ائتمنك وإن خانك ، ولا تَذِعْ سرَّك وإن أذاع سرَّك .

خُذْ بالفضل ، وأحسن البذل ، وأحبب للناس الخير ، فإن هذه من الأخلاق الرفيعة ، وإنك قلما تسلم ممن تسرعت إليه ، وكثيراً ما يحمد مَنْ تفضلت عليه .

اعلم أى بنى أن من الكرم الوفاء بالذمم والدفع عن الحُرَم ، والصدود آية المقْت [٣] ، وكثرة العلل آية البخل ، وبعض الإمساك عن أخيك مع الإلف خير من البذل مع الجنف [٤] ، ومن الكرم صلة الرحم ، والتحرم وجه القطيعة .

احمل نفسك من أخيك عند جموحه على البذل ، وعند تباعده على الدنوّ ، وعند شدته على اللين ، وعند تحرمه على الاعتذار ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك .

ولا تضع ذلك في غير موضعه ، ولا تفعله بغير أهله ، ولا تتخذ من عدوٍّ صديقكَ صديقاً ، فتُعادى صديقك ، ولا تعمل بالخديعة فإنها أخلاق اللئام ، وامحَض [٥] أخاك النصيحة ــ حسنة كانت أم قبيحة ــ وساعده على كل حال ، وزل معه حيث زال ، ولا تطلبن منه المجازاة فإنها من شيم الدناءة ، وخُذْ على عدوك بالفضل ، فإنه أحرى للظفر .

(١) ظنين : كثير الظن فى الناس .
(٢) البلغة : ما يُتبلَّغ به من العيش بدون زيادة على الحاجة .
(٣) المقت : الكره .
(٤) الجنف : الميل عن الحق والظلم .
(٥) امحض أخاك النصيحة : أخلص له النصيحة .

لا تصرم [1] أخاك على ارتياب ، ولا تقطعه دون استعتاب ، وإن من غالظك فإنه يوشك أن يلين ، ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد المودة ، والخيانة لمن ائتمنك ، وخلف الظن لمن ارتجاك ، والغرر بمن وثق بك .

وإنْ أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية ، ومَنْ ظَنَّ بك خيراً فصدِّق ظنه ، ولا تُضيعن برَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ مَنْ أضعت حقه .

لا يكون أهلك أشقى الناس بك ، ولا ترغبن فيمن زهد فيك ، ولا تزهدن فيمن رغب إليك ، إذا كان للخلط موضعاً لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، لا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان إليه ، ولا على البخل أقوى منك على البذل ، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل .

لا يكثرن عليك ظلم مَنْ ظلمك ، فإنه يسعى فى مَضرَّته ونفعك ، وليس جزاء مَنْ سرَّك أنْ تسوءه .

اعلم أى بُنىّ أن الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، واعلم أن الدهر ذو صروف ، فلا تكونن ممن يسبك لاعنة للدهر ومحفلاً عند الناس عذره .

ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق يسرك ، ولا تكن خازناً لغيرك ، فإن كنت جازعاً مما تفلَّت من يديك فاجزع على ما لا يصل إليك .

استدل على ما لم يكن بما قد كان ، فإن الأمور أشباه يشبه بعضها بعضاً ، ولا تكفرن ذا نعمة فإن كفر النعمة من قلة الشكر ولؤم الخلق ، وأقلل العذر ، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بلغت فى الملامة ، فإن

---

(١) لا تصرم أخاك : أى لا تقطع علاقتك به ومودتك له لمجرد الشك والظن .

العاقل يتعظ بالقليل ، والبهائم لا تنفع إلا بالضرب .

واتعظ بغيرك ، ولا يكونن غيرك متعظاً بك ، واحتذ بحذاء [1] الصالحين ، واقتد بآدابهم ، وسرْ بسيرتهم ، واعرف الحق لمن عرفه لك رفيعاً كان أو وضيعاً ، واطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر .

مَنْ ترك القصد جار ، نِعْمَ حظ المرء القناعة ، شر ما أشعر قلب المرء الحسد ، فى القنوط التفريط ، وفى الخوف من العواقب البغى ، الحسد لا يجلب إلا مضرة وغيظاً يوهن قلبك ويُمرض جسمك ، فاصرف عنك الحسد تغنمْ ، وأنقِ صدرك من الغلِّ تسلَمْ .

وارجُ مَنْ بيده خزائن الأرض والأقوات والسماوات ، وسلْهُ طيب المكاسب تجدْهُ منك قريباً ولك مُجيباً ، الشح يجلب الملامة ، والصاحب الصالح مناسب ، والصديق مَنْ صدق غَيْبُه ، والهوى شريك العمى ، ومن التوفيق سَعَةُ الرزق .

نعْمَ طارد الهموم اليقين ، وفى الصدق النجاة ، عاقبة الكذب شر عاقبة ، رُبَّ بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد ، والغريب مَنْ لم يكن له حبيب ، مَنْ تعدَّى الحق ضاق مذهبه ، مَنْ اقتصر على قدره كان أبقى له ، ونعم الخلق وأوثق العُرَى التقوى ، من أعتبك [2] قد هوى ، وقد يكون اليأس دراكاً إذا كان الطمع هلاكاً .

كم من مريب قد شقى به غيره ونجا هو من البلاء ، جانيك مَنْ يجنى عليك ، وقد تعدى الصِّحاح مبارك [3] الجُرْب ، وليس كل عورة تظهر ، ربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رُشْده ، ليس كل مَنْ طلب وجد ، ولا كل مَنْ توقَّى نجا .

---

(١) أى اقتد بهدى وعمل الصالحين .

(٢) أعتبك : رجع إلى ما أرضاك عنه بعد أن ترك ما كنت تأخذه عليه وأسخطك عليه .

(٣) الصحاح : هى الإبل السليمة الصحيحة التى لم تُصَبْ بالجرب ، والمبارك هى مواضع بروك الإبل . والجُرْب : هى الإبل التى قد أصيبت بالجرب .

أخِّر الشيء فإنك إذا شئت عجَّلته ، أَحسنْ إنْ أحببت أن يُحسَن إليك ، احتمل أخاك على كل ما فيه ، ولا تكثر العتاب فإنه يورث الضغينة ويجر إلى المغضبة ، وكثرته من سوء الأدب ، استعتب مَنْ رجوت صلاحه .

قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل ، من كابد الحزبة [١] عطب ، ومَنْ لم يعرف زمانه حُرِب [٢] ، ما أقرب النقمة من أهل البغى ، وأخلق [٣] من غدر أن لا يوفى له ، زلة العالم أقبح زلة ، وعلة الكذاب أقبح علة .

الفساد يبين الكثير ، والاقتصاد يُثمِّر القليل ، والقلة ذلة ، وبر الوالدين أكرم الطبائع ، والخوف شر لحاف ، والزلل مع العجلة ، لا خير فى لذة تعقب ندامة .

العاقل مَنْ وعظتْه التجربة ، ورسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أحسن ناطق عنك ، فتدبَّر أمرك وتقصر شرك .

الهدى يجلو العمل ، وليس مع اختلاف ائتلاف ، ومن حسن العمل افتقاد [٤] حال الجار ، لن يهلك مَنْ اقتصد ، سر المرء دخيله ، ورُبَّ باحث عن حَتْفه ، وليس كل مَنْ ينظر بصيراً .

رُبَّ هزل صار جداً ، مَنْ ائتمن الزمان خانه ، ومَنْ تعظم عليه أهانه ، ومَنْ لجأ إليه أسلمه ، ليس كل مَنْ رمى أصاب ، وإذا تغير السلطان تغير الزمان ، وخير أهلك مَنْ كفاك ، المزاح يورث العداوة ، والحقد أعذر من اجترأ وربما أكدى الحق .

رأس الدين صحة اليقين ، وتمام الإخلاص تجنُّبُ المعاصى ، وخير القول الصدق ، والسلامة مع الاستقامة ، سَلْ عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .

---

(١) الحزبة : العُصْبة المجتمعة .

(٢) حُرِب : سُلِب ونُهِب .

(٣) أى أحرى به وأجدر .

(٤) أى يتعرف أحوال جاره ليعينه ويقوم بأمره .

كُنْ من الدنيا على بُلْغة [1] ، احمل لمن دل عليك ، واقبل عذر من اعتذر إليك ، وارحم أخاك وإنْ عصاك ، وصِلْه وإنْ جفاك ، وعوِّد نفسك السماح ، وتخيَّر لها من كل حال أحسنه .

لا تتكلم بما يُرديكَ ولا ما كثيره يزريك [2] ، أنصف من نفسك قبل أن يُنتصفَ منك .

أى بُنىّ ، إياك ومشاورة النساء إلا ما جربت بكمال ، فإن رأيهن يجرُّ إلى مَنٍّ ، وعزمهن إلى وَهَنٍ ، اكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير لهن من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد عليك من دخول مَنْ لا تثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفهن غيرك فافعل .

أقللْ الغضب ، ولا تكثر العتاب فى غير ذنب ، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة [3] ، وأحسن لمماليكك الأدب ، وإن أجرم أحد منهم جُرْماً فأحسن العفو ، فإن العفو مع العزِّ أشد من الضرب لمن كان له قلب ، وخَفِ القصاص ، واجعل لكل امرىء منهم عملاً تأخذه به ، فإنه أحرى أن لا يتواكلوا .

وأكْرِم عشيرتك فإنهم جناحك الذى بِه تطير ، وأصلك الذى إليه تصير ، فإنك بهم تصول وبهم تطول ، وهم العمدة [4] عند الشدة ، أكرم كريمهم ، وعُدْ [5] سقيمهم ، وأشركهم فى أمورهم ، ويسِّر عن مُعسرهم ، واستعِنْ بالله على أمرك كله ، فإنه أكرم معين .

أستودع الله دينك ودنياك والسلام .

---

(١) هى ما يتبلَّغ الإنسان به فى حياته فلا يزيد عن حاجته شىء .

(٢) يزريك : أى يجعلك محتقراً بين الناس فيتهاونون بشأنك .

(٣) القهرمانة : القهرمان فى اللغة هو الحافظ الوكيل لما تحت يديه من أموال وغيره والقائم بأمور الرجل . والمقصود أن المرأة ليست هكذا ، وإنما هى تحتاج لمن يقوم بأمرها .

(٤) العمدة : ما يُعتمد عليه . فعشيرة الإنسان وقومه هم الذين يعتمد عليهم عندما تنزل به الشدائد والمصائب وتُلِمُّ به الفواجع .

(٥) أى زُرْ مَنْ يمرض منهم .

(٤٢)

دعاء ومناجاة

قال على بن أبى طالب فى خطبة له :

« الله رَبَّ السقف المحفوظ المكفوف ، الذي جعلته سَقْفاً لليل والنهار ، وجعلتَ فيه مجرى الشمس والقمر ومنازل النجوم ، وجعلتَ فيه سبطاً [١] من الملائكة لا يسأمون [٢] العبادة ، ورب الأرض التى جعلتها قراراً للأنام والهوام والأنعام ، وما لا يُحْصى مما نرى وما لا نرى من خَلْقك العظيم .

وربَّ الفُلْك [٣] التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، ورب السحاب المسخَّر بين السماء والأرض ، ورب البحر المسجور [٤] المحيط بالعالم ، ورب الجبال الرواسى [٥] التى جعلتها للأرض أوتاداً وللخلق متاعاً ، إن أظهرتنا على عدونا فجنِّبنا البغى والفساد وسدِّدْنا للحق ، وإن أظهرتهم علينا فارزقنى الشهادة وجنِّب بقية أصحابى من الفتنة » [٦] .

* * *

---

(١) السبط : الأمة .

(٢) لا يسأمون : لا يملُّون .

(٣) الفُلْك : السُّفن .

(٤) المسجور : المملوء ماء .

(٥) الرواسى : الراسية الثابتة .

(٦) البداية والنهاية (٧ / ٢٧٤) .

(٤٣)

دعاء مختار للإمام على بن أبى طالب

اللهم صَلِّ على محمد وآل محمد ، وارزقنى الحق عند تقصيرى فى الشكر لك بما أنعمت علىَّ فى اليُسْر والعسر والصحة والسقم ، حتى أتعرف من نفسى روح الرضا وطمأنينة اليقين بما تحب لك فيما يحدث فى حال الخوف والأمن والرضا والسخط والضر والنفع .

اللهم صَلِّ على محمد وآله ، وارزقنى سلامة الصدر من الحسد حتى لا أحسد أحداً من خلقك على شىء من فضلك ، وحتى لا أرى نعمة من نعمك على أحد من خلقك فى دين أو دنياى أو تقوى أو سعة أو رخاء إلا رجوت لنفسى أفضل ذلك .

اللهم صَلِّ على محمد وآله ، وارزقنى التحفظ من الخطايا والاحتراس من الزلل فى الدنيا والآخرة فى حال الرضا والغضب حتى أكون بما يَرِد علىَّ منهما بمنزلة سواء ، عاملاً بطاعتك ، مؤثراً لرضاك على ما سواهما فى الأولياء والأعداء حتى يأمن عدوى من ظلمى وجورى ، وييأس وليى من ميلى وانحطاط هواى ، واجعلنى ممن يدعوك مخلصاً فى الرخاء دعاء المخلصين المضطرين لك فى الدعاء . إنك حميد مجيد .

وإنْ وكلْتنى إلى خَلْقك تجهمونى ، وإنْ ألجأتنى إلى قرابتى حرمونى وإنْ أعطوا أعطوا قليلاً نكداً ، ومنُّوا علىَّ طويلاً وذمُّوا كثيراً ، فبفضلك اللهم فأغننى ، وبعظمتك فأعِزَّنى ، وبسعتك فابسط يدى ، وبما عندك فاكْفِنى .

اللهم صَلِّ على محمد وآله وخلِّصنى من الحسد ، واحصرنى عن الذنوب ، وورِّعنى عن المحارم ، ولا تُجرِّئنى على المعاصى ورضاى فيما يردُ علىَّ منك ، وبارك لى فيما رزقتنى وفيما خولتنى وفيما أنعمت به علىّ ،

واجعلني في كل حالاتي محفوظاً مكلوءاً مستوراً ممنوعاً مُعَاذاً مُجَاراً .

اللهم صَلِّ على محمد وآله ، واقض عني كل ما ألزمتنيه وفرضته عليَّ لك في وجه من وجوه طاعتك أو لخلق من خلقك ، وإنْ ضعف عن ذلك بدني ووهنت عنه قوتي ، ولم تنْلهُ مقدرتي ، ولم يسَعْهُ مالي ولا ذات يدي ذكرته أو نسيته هو يارب مما قد أحصيته عليَّ وأغفلته أنا من نفسي فَأدِّهِ عني من جزيل عطيتك وكثير ما عندك ، فإنك واسع كريم .

اللهم صَلِّ على محمد وآله ، وارزقني الرغبة في العمل لك لآخرتي حتى أعرف صدق ذلك من قلبي وحتى يكون الغالب عليَّ الزهد في دنياي ، وحتى أعمل الحسنات شوقاً ، وأتولى بالبر عامتهم ، وأغض بصري عنهم عفة ، وألين جانبي لهم تواضعاً ، وأرق على أهل البلاد منهم رحمة ، وأُسرَّ لهم بالغيب مودة ، وأحب بقاء النعمة عندهم نصحاً ، وأوجب لهم ما أوجب لعامتي وأرعى لهم ما أرعى لخاصتي .

اللهم صَلِّ على محمد وآله ، وارزقني مثل ذلك منهم ، واجعل أوفى الحظوظ فيما عندهم ، وزِدْهم بصيرة في حقي ومعرفة بفضلي حتى يسعدوا بي وأسعد بهم .

اللهم صَلِّ على محمد وآله وذريته ، واخصص أبويَّ بأفضل ما خصصت به آباء عبادك المؤمنين وأمهاتهم يا أرحم الراحمين ، اللهم لا تُنسِني ذكرهما في أدبار صلواتي وفي كل آنٍ من آناء ليلي وفي كل ساعة من ساعات نهاري »(١) .

* * *

(١) أدعية على بن أبي طالب - مخطوط بدار الكتب (تصوف ٢٣٥٥) ميكروفيلم ٣٣٣٠٦ .

أهم المراجع

١ ـ إحياء علوم الدين ـ أبو حامد الغزالى ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة .

٢ ـ الأخبار الطوال ـ أبو حنيفة الدينورى (ت ٢٨٢ هـ) ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى ـ الطبعة الأولى ١٩٦٠ م .

٣ ـ أدعية على بن أبى طالب ـ مخطوط بدار الكتب (تصوف ٣٣٥٥) ـ ميكروفيلم٣٣٣٠٦ .

٤ ـ إعجاز القرآن ـ أبو بكر الباقلانى ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ دار المعارف ١٩٧٧ م .

٥ ـ الأمالى ـ أبو على القالى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة .

٦ ـ الأمثال من الكتاب والسنة ـ الحكيم الترمذي ـ تحقيق على البجاوى ـ دار التراث ـ القاهرة .

٧ ـ البداية والنهاية ـ الإمام ابن كثير ـ دار الفكر العربى .

٨ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجى ـ مصر ١٩٦١ م . ط ٢ .

٩ ـ تاريخ الطبرى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ الطبعة الرابعة .

١٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ الحافظ أبو نعيم ـ دار الكتاب العربى مصورة .

١١ ـ حياة الصحابة ـ الكاندهلوى ـ مصورة .

١٢ ـ صفة الصفوة ـ ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٣ ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الأندلسى ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م .

١٤ ـ عيون الأخبار ـ ابن قتيبة الدينورى (ت ٢٧٦ هـ) ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م .

١٥ ـ كنز العمال ـ المتقى الهندى ـ طبعة مصورة .

١٦ ـ مسند الإمام أحمد ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة .

١٧ ـ مسند الحميدى ـ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى ـ عالم الكتب ـ بيروت .

١٨ ـ منتخب كنز العمال ـ المتقى الهندى ـ على هامش مسند أحمد ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة .

* * *

كتب للمؤلف

* **التاليف :**

١ ـ خشوع الإيمان — دار البشير
٢ ـ خطب إمام البلغاء على بن أبى طالب — دار الروضة

* **التحقيق :**

٣ ـ الخشوع فى الصلاة ـ ابن رجب الحنبلى — دار المشرق العربى
٤ ـ كفاية المتعبد وتحفة المتزهد ـ المنذرى — دار المشرق العربى
٥ ـ مداواة النفوس ـ ابن حزم — دار المشرق العربى
٦ ـ الاستعداد ليوم المعاد ـ ابن حجر العسقلانى — دار البشير
٧ ـ سهام الإصابة فى الدعوات المستجابة ـ السيوطى — دار البشير
٨ ـ تهذيب الدعاء المستجاب — دار الروضة
٩ ـ اختصار وتهذيب مفاتيح الفرج — دار الروضة
١٠ ـ الصلاة والتهجد ـ ابن الخراط الأندلسى ـ دار الوفاء المنصورة

* **تحت الطبع :**

١١ ـ الطب النبوى ـ الإمام الذهبى — دار البشير
١٢ ـ مختصر روضة المحبين ـ ابن القيم .
١٣ ـ بداية خلق الكون ـ ابن كثير .

الفهرس

الموضوع	الصفحة